مشاهد يوم القيامة

عندما تبدأ الحديث عن مشاهد يوم القيامة لا بدّ أن نتعرض إلى ثلاث نقاط:

أولاها: معنى الموت.

وثانيها: نفخة الصور.

وثالثها: طريقة البعث.

فمع البعث تبدأ أحداثُ يوم القيامة، ولكن يسبق هذا الموت، والحديث عن الموت أو انتهاء الحياة حديثٌ يمكن أن يُلخَّص في سطور قليلة، فالموت خَلْق من خَلْق الله، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

ولعلنا نلاحظ أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد قدَّم الموتَ في هذه الآية على الحياة، فقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ [الملك: ٢].

ولنا أن نتساءل: لماذا قدَّم الله سبحانه وتعالى الموت على الحياة؟ فنجد أنه لسببين:

السبب الأول: أنه يسبق الحياة، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨]، أي: أن الموت يكون قبل الحياة، ومن هنا فهو سابق للحياة.

والسبب الثاني: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يلفتنا إلى أن الموت حتى إذا تذكَّرناه سارعنا إلى الخير والإيمان والعمل الصالح، ولكنه ليس في حاجة لأنْ يلفتنا إلى الحياة، فدوافع الحياة متمكنة متأصلة في النفس البشرية.

مَنْ منا إذا جاء أول الشهر ينسى أن يقبض مرتبه.. مَنْ منا إذا أحس بالجوع ينسى أن يأكلَ لعدة أيام.. مَنْ منا لا يحاول أن يحصلَ على أكبر حظ من الدنيا.. دوافع الحياة كثيرة وموضوعة في النفس البشرية لتستطيع هذه النفس أن تؤدي مهمتها في الكون، وهي عمارة الأرض وبناء الحضارة.

ولكننا ونحن نتذكر الحياة في ثانية ننسى دائماً الموتَ، وقد تمر سنوات دون

أن نتذكر أننا سنموت ونلاقي الله، بل إننا إذا ذكَّرنا إنساناً بذلك فإننا نحاول أن نبعدَ هذه الصورة.. صورة نهاية الحياة ونستعيذ منها.

إذن: فنحن محتاجون دائماً لأنْ يلفتنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى الحقيقة، فيأتي ذكر الموت أولاً ليلفتنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ إليه حتى لا نحسب أننا أخذنا الحياة الدنيا اغتصاباً واقتداراً، ولن نخرج منها.

والموت هو انتهاء الإرادة البشرية، فما دُمْتَ حياً فإنك تستطيع أن تفعل كذا ولا تفعل كذا، ويكون لك اختيار وبدائل، ولكن متى جاء الموت انتهى هذا الاختيار تماماً، ولم يَعُدْ لك اختيار فيما سيفعل بك، أو سيقع عليك من أحداث من لحظة الموت إلى يوم القيامة، فالإرادة البشرية انتهت مهمتها في اختبارات الدنيا، وما دامت قد انتهتْ مهمتها فهي الأخرى لم يَعُدْ لها وجود.

وهكذا تنتهي إرادتك البشرية، وتنتقل إلى حياة البرزخ التي لا تملك فيها إرادة، ثم يوم القيامة الذي لا تملك فيه إرادة أيضاً، على أننا لا بدَّ أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

ولكن، هل للموت مذاق وطعم يتذوقه الإنسان؟ هل له طعم مثل الطعام مثلاً؟

نقول: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يستخدم لفظ الذوق، لأنه الإحساس الصارخ في الأشياء الذي يحس بها كيانك كله.. فأنت ترى مثلاً بعينيك، وتسمع بأذنيك، وتلمس بيديك، وتشم بأنفك.

ولكن الذوق باللسان هو الشيء الذي يعود بالنفع على هيكل الجسم كله، فيعطيك إحساساً باللذة وجمال الطعم، ويعطي جسدك الطاقة التي يعيش بها، ويعطي الدم الغذاء الذي يحتاج إليه، ويعطي المعدة ما تمتصه للجسم، ويعطيك القدرة على الحركة.

فأنت إذا تناولتَ الطعام فإنك تعطي لجسدك كل شيء يحتاج إليه، ولا يصل تأثير ذلك إلى جزء معين من الجسد، بل يصل إلى أعضاء الجسد كله، فإذا كان الإنسان بدون طعام فإنه لا يقوى على الحركة، ولا على التفكير، ولا على الكلام، ولا على الرؤية السليمة بالعينين.

وهكذا نرى أن أثر الذوق يصل إلى الجسد كله.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠].

أي: أن الكفار حين يُعذبون في النار يصل الحريق إلى كل خلية من أجسادهم، كما يصل الطعام إلى كل خلية من خلايا الجسد في الحياة . . والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

أي: أن الجوع تمكَّن منهم حتى ذاقته كل خلية في الجسم. . أو أن الخوف ملكهم حتى مَسَّ كل خلية من أجسادهم، فارتعدتْ أيديهم، ولم تكُنْ أقدامهم قادرةً على التفكير من شدة الخوف.

إذن: فمعنى الذوق هو أن يحيط الشيء إحاطة كاملة بالإنسان حتى تتأثر به كل خلية في جسده. . وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

أراد الله أن يعطينا بها معنى الإحاطة، فكأن كلَّ خلية من الجسد سيمسها الموت، فالموت لا يؤثر على الحواس فقط أو العقل والقلب فقط، ولكنه يشمل كل خلية في جسد الإنسان له تأثير عليها، وهي تحس به، وتتأثر به.

وهذا هو المعنى الذي قصده الحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، وبعد الموت تأتي حياة البرزخ بقوانينها، فهي حياة لا زمن فيها، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣].

وضربنا مثلاً لذلك بأصحاب الكهف الذين أماتهم الله ثلاثمائة عام، وعندما بُعِثُوا لم يُحسوا بالزمن: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩].

* * *

وقد أخذ العلماء من هذا القول أنهم حين تساءلوا هذا السؤال لم يجدوا في ذواتهم شيئاً يدل على مرور زمن طويل، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التي ناموا عليها، فلم يتغير مثلاً حالُهم من الشباب إلى الشيخوخة، ولم يتغير شعرهم مثلاً على البياض؛ لذلك قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، ولو وجدوا أنفسهم شيباً لقدَّروا الزمن المناسب لهذا الشيب.

وهذه وقفة المشدوه حين يسأل عن زمن لا يدري مدته، إنه طويل عند الله إنما قصير عنده، وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ

كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

لقد حكم على مدة لبثه بيوم أو بعض يوم؛ لأنه وجد نفسه على الحال التي عهدها لم يتغير منه شيء، فكيف يتأتَّى الصدق من الحق سبحانه في قوله: ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾، والصدق في قول العزيز بيوم أو بعض يوم؟

لا شكَّ أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه، ومعجزة من معجزاته لا يقدر عليها إلا المالكُ للزمان والمكان، القابضُ للزمان ليوم أو بعض يوم، الباسطُ له إلى مائة عام.

لذلك أظهر الخالق سبحانه في هذه المعجزة الدليلَ على صدق القولين: ففي طعام العزيز الذي ظل على حاله طازجاً لم يتغير دليلٌ على يوم أو بعض يوم، وفي حماره الذي رآه عظاماً بالية دليلٌ على المائة عام، فسبحان الذي يجمع الشيء وضده في آنٍ واحد.

ويخبرنا الحق سبحانه بحوار دار في هذا الشأن، السؤال هو: كم لبثت؟ فأجاب الرجل: لبثت يوماً أو بعض يوم.

وإجابة الرجل تعني أنه قد تشكك، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء أو انتهى، أو أنه عندما رأى الشمس مشرقة أجاب هذه الإجابة: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أو يكون قد قال ذلك؛ لأنه لا يستطيع أن يتحكم في تقدير الزمن.

فهل هو صادق في قوله أو كاذب؟ إنه صادق، لأنه لم يَرَ شيئاً قد تغير فيه ليحكم بمقدار التغير، فلو كان قد حلق لحيته مثلاً، وقام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالت، أو قد نام بشعر أسود، وقام بعد ذلك بشعر أشيب، فلو حدثت أية تغيرات فيه لكان قد لمسها، لكنه لم يجد تغيراً.

فماذا كان جواب الحق سبحانه؟ قال تعالى: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إننا هنا أمام طرفين، ويكاد الأمر أن يصبح لغزاً، وطرف يقول: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ورب يقول: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾. ونريد أن نحل هذا اللغز.

إن الحق سبحانه صادق في حدود ما رأى من أحواله. ونريد دليلاً على هذا، ودليلاً على ذاك. نريد دليلاً على صدق العبد في قوله: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ونريد من الحق سبحانه وتعالى دليلَ اطمئنان لا دليلَ برهان على أن الرجل قد مات مائة عام وعاد إلى الحياة.

ونقول: إن في القصة ما يؤيد: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وما يؤيد: ﴿بَل

﴿لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾، فقد كان مع الرجل حماره، وكان معه طعامه وشرابه من عصير وعنب وتين. فقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾.

وأراد أنْ يدلل على الصدق في القضيتين معاً، فقال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه فوجد الطعام والشراب لم يتغيرا، وهذا دليلٌ على أنه لم يمكث إلا يوماً أو بعض يوم، وبذلك ثبت صدق الرجل، بقيت قضية: ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾.

فقال الحق: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ وهذا القول يدل على أن هنا شيئاً عجيباً، وأراد الله أن يبين له بنظرة إلى الحمار دليلاً على صدق مرور مائة عام، ووجد الرجل حماره وقد تحوّل عظاماً مبعثرة، ولا يمكن أن يحدث ذلك في زمن قصير، فإن موتَ الحمار أمر قد يحدث في يوم.

لكن أن يرمّ جسمه، ثم ينتهي لحمه إلى رماد، ثم تبقى العظام مبعثرة، فتلك قضية تريد زماناً طويلاً لا يتسع له إلا مائة عام، فكأن النظر إلى الحمار هو دليل على صدق مرور مائة عام، والنظر إلى الطعام دليل على صدق: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

فالقضية إذن قضية عجيبة، وكيف طوي الزمن في مسألة الطعام، وكيف بسط الزمن في مسألة الحمار. إنه سبحانه يظهر لنا أنه هو القابضَ الباسط، فهو الذي يقبض الزمن في حق شيء، ويبسط الزمن في حق شيء آخر، والشيئان متعاصران معاً. وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة طليقة لا تملكها النواميس الكونية.

وقد قال الحق سبحانه: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، فمَنْ هم الناس الذين سيجعل الله من قضية الذي مرَّ على قرية آية لهم؟ كان لا بد أن يوجد أناس في القصة، لكن القرية خاوية على عروشها، وليس فيها إنسان أو بنيان، أهم الذين كانوا في القرية أم سواهم؟

قال بعض المفسرين هذا، وقال البعض الآخر الرأي المضاد.

وأصدقُ شيء يمكن أن يتصلَ بصدق الله في قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ هو قَبْض الله للزمن في حق شيء، وبَسْطه في حق شيء آخر.

وعُزَير ـ كما قال جمهرة العلماء ـ هو الذي مرَّ على قرية، وعزير هذا كان من الأربعة الذين يحفظون التوراة، فلم يحفظ التوراة إلا أربعة: موسى، وعيسى، وعزير، ويوشع، وقد أراه اللّهُ العظامَ، وكيف يُنشزها ويرفعها فتلتحم ثم يكسوها لحماً، أي: أراه عملية الإحياء مشهدياً.

وفي هذا إجابة للسؤال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ والحق يقول: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾، و﴿نُنشِزُهَا﴾ أي: نرفعها، ورأى (عُزير) كل عَظْمة في حماره، وهي تُرفع من الأرض، وشاهدَ كل عظمة تُركَّب مكانها، وبعد تكوين الهيكل العظمي للحمار بدأتْ رحلةُ كسوة العظام لحماً، وبعد ذلك تأتي الحياة.

لقد وجد عُزير إجابة في نفسه، ووجد إجابة في الحمار، ومن بعد ذلك تذكَّر قريته التي خرج منها، وأراد العودة إليها، فلما عاد إليها وجد أمرها قد تغير بما يتناسب مع مرور مائة عام، وكان في تلك القرية مولاة لهم، أي: أمة في أسرته، وكانت هذه الأَمَة قد عميتْ وأصبحتْ مُقْعدة.

فلما دخل وقال: أنا العُزير. قالت الأَمَة: ذهب العزير من مائة عام، ولا ندري أين ذهب ولم يعُد؟ قال: أنا العزير. قالت: إن للعزير علامةً، هذه العلامة أنه مُجَاب الدعوة، ولم تَنْسَ نفسها.

قالت: فإن كنتَ العزير فادْعُ اللّه أنْ يردَّ عليَّ بصري، وأن يُخْرِجني من قعودي هذا. فدعا عزيرٌ اللّهَ فبرئتْ، فلما برئتْ؛ نظرتْ إليه فوجدته هو العُزير فذهبت إلى قومها، وأعلنتْ أن العزير قد عاد. وبعد ذلك ذهب العزير إلى ابنه، فوجده رجلاً قد تجاوز مائة سنة، وكان العزير لا يزال شاباً في سن خمسين سنة.

ولذلك ترى الشاعر يقول مُلْغزاً: وما ابنٌ رأى أباه وهو في ضِعْف عمره؟ والمقصود بهذا اللغز هو العزير الذي أماته اللّه وهو في الخمسين، ثم أحياه اللّه في عمره نفسه بعد مائة عام، والتقى العزير بابنه. قال الابن: كنت أسمع أن لأبي علامةً بين كتفيه «شامة».

فلما كشف العزير كتفه لابنه وجد الشامة. وتثبَّت أهلُ القرية من صدق عزير بشيء آخر هو: أن (بختنصر) حينما جاء إلى بيت المقدس وخربها حرق التوراة، إلا أن رجلاً قال: إن أباه قد دفن في مكان ما نسخة من التوراة، فجاءوا بالنسخة، قال العُزير: وأنا أحفظها.

وتلا العزيرُ التوراةَ كما وُجدت في النسخة، فصدَّق القوم أنه العزير، وتعجَّب الناسُ وهم يشاهدون ابناً تخطى المائة، وأباً في سن الخمسين. ولذلك يذيّل الحق سبحانه الآية بالقول: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ألم يكن قبل ذلك يعلم أن اللّه على كل شيءٍ قدير؟

نعم.. كان يعلم علم الاستدلال، وهو الآن يعلم علمَ المشهد، علمَ

الضرورة، فليس مع العين أين. إذن: فـ ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هي تأكيد وتعريف بقدرة الله على أن يبسط الزمن ويقبضه، وقدرة الله على الإحياء والإماتة، فصار يعلم حقَّ اليقين بعد أنْ كان يعلم علم اليقين.

وهذه المسألة تفسر ما يقوله العلم الحديث عن تعليق الحياة. ومعنى تعليق الحياة يشبه ما تفعله بعض الثعابين عندما تقوم بالبيات الشتوي، أي: تنكمش في الشتاء في ذاتها، ولا تبدي حركة، وتظل هكذا إلى أنْ يذهب الشتاء، ومدة البيات الشتوي لا تُحتسب من عمر الثعابين، ولذلك يقال: إن ذلك هو عملية تعليق الحياة. وهذه العملية التي قد نفسر بها مسألة أهل الكهف.

فأهل الكهف أيضاً مرَّت عليهم العملية نفسها:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۖ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

إنهم لم يروا شيئاً قد تغيَّر فيهم.. وبعد ذلك قال الحق سبحانه: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].

إن الله حدَّد الزمن الذي لبثوه، بينما هم قالوا: إن الزمن هو يوم أو بعض يوم. ومعنى ذلك أنهم عندما ناموا هذا اللون من النوم واستيقظوا وجدوا أنفسهم على حالتهم التي كانت قبل هذا اللون من النوم. إذن: فقد علَّق الله حياتهم.

ونلاحظ أن كل هذه العملية قد جاءتْ هنا في قصة العُزَيْر، بعد آية الكرسي التي تصوّر العقيدة الإيمانية:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وتصوّر قضية الحياة وقضية الموت، ونعلم أن إبراهيم عليه السلام حين حَاجَّه الرجل وقال له: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، نقل إبراهيم الحجة إلى الليل والنهار، وطلب منه أنْ يعكسَ آية الليل والنهار، فقال للرجل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وحتى لا يظن أحدٌ أن إبراهيم عليه السلام إنما ترك الكلامَ عن الإحياء والإماتة فراراً من الجدل. ونقل الأمر إلى الشمس، لكن أراد الله أنْ يأتيَ بقصة هذا

الإنسان الذي مرَّ على قرية وهي خاوية، فيحدث له كل ما تقدم ليثبت الحقُّ لنا أن قضية الحياة وقضية الموت بيده وحده. وليُخرج الحق سبحانه أمرَ الحياة والموت عن مجال السفسطة الجدلية.

وعرفنا من قبل معنى السفسطة الجدلية حينما تعرَّضنا لقول الذي حَاجَّ إبراهيم في ربه باثنين من المسجونين، وقال: أنا أستطيع أن أقتل واحداً، وأنْ أترك الثاني بلا قتل.

هذه هي السفسطة: إنه لم يُحيي، بل أبقى حياة. وعرفنا أن الإحياء ضد الإماتة؛ لأن الإماتة هي أن تخرج الروحُ من الجسد بدون جرح، أو نقض بنية، أو عمل يفعله الإنسان في البدن. أما إذا فعل إنسانٌ أيَّ شيء من هذه الأفعال ضد إنسان آخر فلا يقال إنه أماته، بل يُقال لقد قتله.. والموت كما عرفنا غير القتل.

ونأتي بعد ذلك لقصة إبراهيم عليه السلام، فإبراهيم بعد أنْ نقل الجدل مع الرجل إلى الشمس، فبُهِتَ الرجل الذي كفر، أما إبراهيم عليه السلام فهو يؤمن بقدرة اللّه، لكنه يريد أنْ يعرف الكيفية.

إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شَاكّاً؛ لأن رسول اللّه ﷺ قال: «نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ونحن المسلمين لم نشكّ في هذا الأمر. إذن: فإبراهيم عليه السلام لم يشكّ من باب أَوْلَى، بدليل منطوق الآية، حين قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

النَّفْخ في الصُّور

وهكذا نرى أنه لا زمنَ في حياة البرزخ، وأن الذين يعيشون في البرزخ لا يُحِسون بالزمن، يقول الحق سبحانه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، وهو يوم القيامة.

والصُّور: هو البُوق الذي يُنفخ فيه النفخة الأولى والثانية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

أي: نجمعهم ونسوقهم زُرْقاً، والزُّرْقة هي لونهم، كما ترى شخصاً احتقن وجهه، وازرقَّ لونه بسبب شيء تعرَّض له، هذه الزُّرْقة نتيجة لعدم السلام والانسجام

في كيماوية الجسم من الداخل، فهو انفعالٌ داخلي يظهر أثره على البشرة الخارجية، فكأن هَوْلَ القيامة وأحداثها تُحدِث لهم هذه الزُّرْقة.

والبعض يفسر: ﴿زُرْقًا﴾ أي: عُمْياً، ومن الزُّرْقة ما ينشأ عن العمى، ومنها المياه الزرقاء التي تصيب العين، وقد تُسبِّب العمى.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: في هذه الحال التي يُحْشَرون فيها زُرْقاً ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يُسرّون الكلام، ويهمس بعضهم إلى بعض، لا يجرؤ أحد منهم أنْ يجهر بصوته من هَوْل ما يرى، والخائف حينما يُلاقي من عدوه ما لا قِبَلَ له به يُخفي صوته، حتى لا ينبهه إلى مكانه.

أو: لأن الأمرَ مَهُول لدرجة الهلع الذي لا يجد معه طاقةً للكلام، فليس في وُسْعه أكثر من الهمس.. فما وجه التخافت؟ وبِمَ يتخافتون؟ يُسِرُّ بعضُهم إلى بعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾.

يقول بعضهم لبعض: ما لبثنا في الدنيا إلا عشرة أيام، ثم يوضح القرآن بعد ذلك أن العشرة هذه كلامهم السطحي، بدليل قوله في الآية بعدها: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤].

فانتهت العشرة إلى يوم واحد، ثم ينتهي اليومُ إلى ساعة في قوله تعالى حكايةً عنهم:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

فكل ما ينتهي فهو قصير، إذن: أقوال متباينة تميل إلى التقليل؛ كأن الدنيا على سعة عمرها ما هي إلا ساعة: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وما هذا التقليل لمدة لبثهم في الدنيا إلا لإفلاسهم، وقلة الخير الذي قدموه فيها، لقد غفلوا فيها، فخرجوا منها بلا ثمرة؛ لذلك يلتمسون لأنفسهم عذراً في انخفاض الظرف الزمني الذي يسع الأحداث، كأنه لم يَكُنْ لديهم وقت لعمل الخير!!.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤].

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقصُّ على رسوله ﷺ في الدنيا ما سيكون من أمر هؤلاء المجرمين في الآخرة، فإذا ما وقعتْ القيامةُ جاءت الصورة كما حكاها اللّهُ لرسوله هي هي؛ ذلك لأن الله تعالى وسع كل شيء علماً.

obeikandl.com

وهذا القول الذي حكاه القرآن عنهم أمر في اختيارهم، وقد سمعوا ذلك من رسول اللّه، وبوُسْعهم ألاَّ يقولوا، لكن إذا جاءت القيامة فسوف يقولونه بالحرف الواحد لا يُغيّرون منه شيئاً.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾.

يعني: أحسنهم حكماً.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

في هذه الآية ملاحظتان: **الملاحظة الأولى**: أن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ استثنى من الصَّعْقة التي ستحدث في الآخرة، فكأن هناك مَنْ لن تصيبهم الصعقة، وقد قدَّم الحق سبحانه النظر في هذه الآية على السمع.

وهذه هي المرة الوحيدة في القرآن الكريم التي قدَّم فيها النظر على السمع، فاللّه تعالى في كل آيات القرآن كان يأتي بالسمع قبل البصر: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ولكن في هذه الآية وحدها قدَّم النظر على السمع.

نقول: إنه بالنسبة للصعقة التي ستصيب الإنسان يوم القيامة، فإن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ كتب على نفسه أن تصيب المخلوقات كلها صعقةٌ واحدة، ولذلك فكل مَنْ أُصيبوا بالصعقة من قبل لن يُصابوا بالصعقة مرة أخرى، لأن المخلوقات لا تجمع بين صعقتين.

فموسى عليه السلام صُعقَ في الدنيا عندما طلب أنْ يرى اللّه جهراً، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولذلك فإن موسى لن يُصاب بالصعقة مرة ثانية، وكذلك الجبل الذي تجلى له اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ فأصيب بالصعقة فكان دَكاً.

وكذلك أولئك النفر من قوم موسى الذين صُعقوا قبل ذلك، وقال عنهم القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

وهناك مَنْ أخذتهم الصعقةُ من قوم عاد وثمود، ولذلك فإن كلَّ من صُعقُوا لن تصيبهم الصعقةُ مرة أخرى، وهذا معنى قول الحق سبحانه: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

على أن ذلك لا يعني أنه ليس لله ـ سبحانه وتعالى ـ طلاقةُ القدرة، فالله له طلاقة قدرة يفعل ما يشاء متى شاء، وطلاقة القدرة في الكون هي التي صنعتْ المعجزات للأنبياء، فمعجزاتُ الرسل خرقتْ نواميس الكون، وأبطلت الأسباب، ذلك أن أسبابَ الدنيا ليست قيداً على خالقها، وهو الله سبحانه وتعالى.

ولذلك، فإن الله جعل للنار خاصيةَ الإحراق، جعلها بَرْدَاً وسلاماً على إبراهيم، وجعل البحر ينشقّ لموسى، وطلاقة القدرة موجودة في الكون منذ خُلق إلى يوم القيامة، فهي التي تُعين المظلومَ على الظالم، وتنصر الضعيفَ على القوي.

لذلك عندما ترى إنساناً يصيح: ربنا كبير. أو: ربنا موجود. فاعلم أنه رأى طلاقةَ قدرة الله، لأنه لو رأى الأسباب تعطي ما تعجَّب وما صاح، ولكن لأن الأسباب تعطلت بعدل المسبب، فإنه صاح: ربنا كبير.. ربنا كبير.

إذن: فقوْل الحق فيمن ستصيبهم الصعقة إلا مَنْ شاء الله.. يعني: من أصابته الصعقة من قبل.. ومَن يشاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ بطلاقة قدرته ألاَّ تصيبه الصعقة.

أما استخدام (ينظرون) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، لأنها الحالة الوحيدة التي سنرى فيها قبل أن نسمع عند البعث من القبور.. يخرج الناس فيرَوْنَ أولاً الأرض، وهي تتشقق والناس يخرجون منها.

ولكن العكس يحدث في كل الأحداث الأخرى، فعندما يخرج الطفل من بطن أمه فإنه يظل عدة أيام لا يرى، حتى أنك إذا قرَّبتَ إصبعك من عينه لا تهتز جفناه، ولكنك إذا أحدثتَ صوتاً عالياً بجانب أذنه في لحظة الولادة الأولى فإنه ينزعج.

ولذلك، كانت الأذن أولاً في آيات القرآن، لكننا في الآخرة نخرج من القبر فنرى أولاً.

البعث يوم العرض على خالق الأرض

على أن مشاهد يوم القيامة التي ذكرها القرآن الكريم تُرينا أننا سنقوم دفعة واحدة من الأرض.. سنُبعث مرةً واحدة.. سنقوم جميعاً في لحظة واحدة، ولذلك سماها الله سبحانه وتعالى (الحشر).. ما معنى الحشر؟

معناه: محاولة إدخال أشياء متعددة في مكان ضيق لا يتسع لها.. بهذا يريد الله أن يقربَ لنا صورة ما سيحدث ساعة البعث ليسميه الحشر، لأن الناس الذين دُفنوا في الأرض من عهد آدم حتى يوم القيامة سيخرجون منها دفعةً واحدة.. وبما أننا سنُبعث من نفس الأرض التي دُفنَّا فيها.. وسنُبعث في لحظة واحدة،

obeikandl.com

فسيكون الازدحامُ رهيباً، والأرض تحمل كل المخلوقات من عهد آدم حتى يوم القيامة.

يخرج الناسُ من الأرض يوم البعث، ويخرجون هم هم بكل صفاتهم وأوصافهم التي كانوا عليها في الدنيا.. بعض الناس يتساءلون: كيف يمكن ذلك؟ كيف يمكن أن تخرجنا الأرض بذواتنا مرة أخرى بعد أن اختلطتْ المكونات.

ويقول هؤلاء الناس: لنفرض أن إنساناً مات ودُفن في مكان ما.. ثم زُرعت شجرةُ تفاح في هذا المكان، فإنها ستتغذى على العناصر المُكوِّنة لجسد الميت المدفون تحتها.. فإذا طرحتْ هذه الشجرة ثماراً، وجاء إنسانٌ وأكل من هذه الثمار التي فيها عناصر من إنسان آخر مدفون تحت هذه الشجرة، واختلطت العناصر بعضها ببعض.

فالعناصر التي في جسد الإنسان الذي أكل التفاحة هي من إنسان آخر، ثم بعد ذلك أولاد هذا الرجل سيأخذون من عناصر الجسد الآخر.. وكذلك أولادهم وأحفادهم، وتصبح العناصر مختلطة وفي أجساد متفرقة.. كيف يجمعها اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يوم القيامة في جسد صاحبها مرة أخرى.

نقول لهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام: إن تفكيركم تنقصه الحكمة والعلم، ذلك أن كلَّ إنسان مخلوق من طين، وقد انتهى العلم التجريبي أو العلم المعملي إلى أن الجسد الإنساني مكوَّن من ستة عشر عنصراً هي عناصر الطين.. وأن أولها الكربون والأكسجين، فهي أعلاها نسبةً وآخرها المنجنيز.. ذلك هو الجسد البشري، والجسد البشري قُوتُه من عناصر الأرض نفسها، أو مما تنتجه الأرض.

ولذلك، فإن الإنسان إذا أكل كثيراً ترهَّل جسده وزاد وزنه، من نفس جنس المواد المصنوع منها الجسد. أي: أن الإنسان إذا أكل بشراهة وزاد وزنه عشرين كيلو مثلاً، فإن هذه الزيادة لا تكون من مادة غريبة على الجسم، ولكن من نفس مادة الجسم، لأنها من الطين، والإنسان مخلوقٌ من طين، وإذا لم يأكل الإنسان انخفض وزنه من نفس عناصر الجسم أيضاً، هذه الزيادة في الوزن لا تتعلق بالتكوين الدقيق للإنسان، ولكنها مواد تُفْقَد وتعود حسب الطعام الذي يتناوله كلّ منا.

إذا جئنا بعد ذلك إلى الإنسان.. صحيح أننا جميعاً مخلوقون من عناصر الأرض ولكن لكلٍّ منا خَلْق مميز. أي: أن نسب عناصر تكوين كل منا تختلف عن الآخر.. فبعضنا يزيد في جسمه الحديد ذرّة أو ذرّتان، وبعضنا ينقص.. والبعض الآخر يزيد فيه ذرة منجنيز، والبعض الآخر ينقص.

obeikandl.com

ولذلك، فإنك تجد في كثير من الأحيان أنك حين تذهب للطبيب يقول لك: إن عندك نقصاً في الحديد أو في البوتاسيوم.. ويعطيك الدواء الذي يكمل لك هذا النقص.

إذن: فعناصر الأجسام كلها واحدة.. كل واحد فيه الستة عشر عنصراً الموجودة في الأرض.. ولكن النسب تختلف بين كل واحد منا والآخر.. تكوين هذه النسبة هو الذي يُكوِّن كلَّ شخص فينا.. وهذا التكوين هو من خلْق اللّه سبحانه وتعالى.

ولذلك إذا أُعدّتْ النسب بنفس تكوينها عاد الشخص هو هو إلى الحياة، وهذا ما لا يقدر عليه إلا اللّه.. واختلاف النسب يعطينا عدداً لا نهائياً من الأشخاص الذين يتميز كلٌّ منهم عن الآخر.. إذن: فاختلاف الشخصيات مبنيٌّ على اختلاف النسب، وليس على عناصر التكوين التي نشترك فيها جميعاً.

مثال للتقريب إلى الأذهان:

لكي نُقرّب ذلك إلى الأذهان ـ وللّه المثل الأعلى ـ نقول: لنفرض أننا أردنا طلاء منزل، وأتينا بستة عشر لوناً أساسياً.. ولا يوجد في الكون ستة عشر لوناً أساسياً حسب علمنا.. ثم بدأنا نعد الطلاء الذي نريده.. وأتينا باللون الأبيض مثلاً، لو وضعنا فيه ذرة من اللون الأصفر لاختلف.. ولو زودنا ذرة أخرى لاختلف.

وإذا جئنا باللون الأحمر ووضعنا منه ذرة على الخليط لاختلف.. وإذا وضعنا ذرتين لاختلف.. فإذا جئنا باللون الأبيض المخلوط بذرّتين من اللون الأحمر.. ثم وضعنا فيه ذرة صفراء أو سوداء أو خضراء.. كل ذرة تعطي لوناً مختلفاً، ولذلك فإن الذي يريد طلاء المنزل، فإنه لا بدَّ أن يقوم بعمل خلطة البويات كلها معاً.

ذلك أنه لو قام بعمل خلطة كل حجرة على حِدَة لما استطاع أنْ يضبط الألوان أبداً، لأنها عمليةٌ غاية في الدقة.. توجد بدائل لا نهائية.. بل إن اللون إذا تركته يوماً في وعاء، فإنك تأتي في اليوم التالي لتجده قد تغير، بل إنك حين تضع ساعة أو صورة أو نتيجة على الحائط وترفعها بعد عدة أيام تجد أن اللون في مكانها قد اختلف عن بقية لون الحائط، لأن إشعاعات الضوء تتفاعل مع اللون.

إذا كان ذلك يحدث بالنسبة لقدرات البشر المحدودة، فماذا يمكن أن تفعل طلاقة قدرة اللّه مع خَلْقه.. إنها تؤلف نسباً لا نهائية.. لا يقف أمامها عددٌ مهما بلغ، ذلك لأن إمكاناتنا الدنيوية لها حدود، ووسائل إدراكنا لها حدود.

فهذا نظره قوي، وهذا ضعيف، وهذا أضعف، وهذا يسمع دبيب النملة، وذلك لا يسمع دويّ القنابل.. ولك أنْ تضعَ ما تشاء من درجات السمع بين دبيب النملة ودويّ القنبلة.

إذن: فالإدراكات عند البشر تختلف، واختلاف المدرَك حجماً ولوناً وتكويناً هو الذي يعطي هذه الإدراكات درجاتها من ضعف وقوة.. فتعطينا في الدنيا اختيارات بلا حدود.. فكيف بإدراكات الخالق سبحانه وتعالى؟

إذن: فالذين يُثيرون هذا الكلام يعتقدون أنه ما دامتْ أجسادنا مخلوقة من الأرض، وما دامتْ الأرض مكونةً من ستة عشر عنصراً، فإن الأجساد ستختلط.

نقول لهم: لا.. إن اختلاف النسب يحفظ لهذه الأجساد خصوصيتها، فإذا قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ «كُنْ» عادت هذه النسب بنفس الطريقة التي تكونت بها، أو بنفس الخلق الذي تم أول مرة، فيُبعث الإنسان يوم القيامة بجسده هو هو وبشخصيته هي هي ليُحاسب، ولا تأتي الأجساد ولا الشخصيات يوم القيامة، وقد اختلطتْ ببعضها البعض، بل كل منا مميز بتمييز لا يختلط مع أحد غيره، وكل منها سيأتي بجسده هو، وشخصيته هي يوم القيامة، ويُبعث هو هو ليُحاسب.. فإما أنْ يُنعَّم، وإما أن يُعذَّب.

تأتي ساعة البعث ويخرج الناس جميعاً مرة واحدة، ويُبعثون من نفس الأرض التي دُفنوا فيها، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، وبعد أن نخرج من هذه الأرض التي كنا نعيش عليها نُسَاق إلى أرض المعاد، ذلك لأن هذه الأرض مُعَدّة للحياة الدنيا حتى لحظة البعث، مُدَّخَرٌ فيها أقواتُ البشر وأرزاقهم.

والحياة فيها تمضي بالأسباب، ولكن المسبب والخالق قيُّوم على هذه الأسباب، لا يترك كونه لحظة، ولا يغفل عنه ولو بُرْهة صغيرة.. وهو إذا شاء ومتى شاء عطَّل الأسباب لتتدخل قدرة المسبب، لتنصر مظلوماً على ظالم، أو تقتصَّ لضعيف بُغِيَ عليه من قويّ طغى بالأسباب، وأفسد في الكون.

أرض الأسباب هذه انتهتْ مهمتها، ولذلك فهي تُدمَّر، والبشر يُساقون إلى أرض المعاد التي يتم عليها الحساب، لأنه في الحياة الآخرة تنتفي الأسباب، ولا تصبح الأرض التي نعيش عليها صالحة ليوم الحساب، وما بعد يوم الحساب.

ماذا يتم عند تبديل الأرض؟

فالناس يخرجون من أرض الأسباب إلى أرض المعاد.. ولكن هل يخرجون

هكذا؟ كل منهم يذهب حيث يريد، ويتجه إلى أيّ مكان يريده.. أم أن المسألة لها نظامٌ محكم دقيق مُعَدٌّ، بحيث يكون كل شيء في موضعه تماماً.

إن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فإذا كانت هذه الأرض ستتبدل بأرض جديدة وكذلك السماوات، فهل سنمضي كلٌّ يذهب باختياره إلى المكان الذي يريده وعلى هواه.. هذا يتأخر، وهذا يتقدَّم، وهذا يذهب يميناً، وهذا يذهب يساراً، وبعضنا يجري إلى الخلف هروباً من هذا الموقف الرهيب.. وآخرون يزاحمون من الصفوف الخلفية ليصلوا إلى الصفوف الأمامية.. هل سيحدث هذا؟ لا.

لقد قلنا: إن الموتَ معناه انتهاء إرادة الإنسان.. انتهاء الاختيار.. فلا أحدَ يملك أنْ يختار لنفسه شيئاً، ولا أحدَ يملك أن يفعل أو لا يفعل حسب هواه، فهذا الاختيار كان ممنوحاً للبشر في الحياة الدنيا كامتحان لهذا اليوم.. والآن انتهى الامتحان.. وأصبح كل إنسان يحمل أعماله التي أطاع فيها منهج اللّه، والتي عصى فيها هذا المنهج.. وبدأتْ أولى خطوات الطريق إلى الحساب.

لم يَعُدْ أحدٌ يملك من أمره شيئاً.. تأمل دِقَّة القرآن الكريم، وهو يصف لنا كيف سننتقل من هذه الأرض التي نعيش عليها إلى أرض المعاد.

الكل قادمون إلى اللّه:

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

تأمل قول الحق سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾. أي: لن يفلت أحدٌ.. الكل قادم.. من عهد آدم إلى يوم القيامة، ولكن ليس كلٌّ قادم باختياره ومشيئته.. بل كلُّ نفس معها سائق.

ما هو السائق؟ السائق في اللغة هو الذي يسوق الغنم إلى المرعى، وهو الحريص على أن تسير الغنمُ في الطريق المرسوم إلى مكان الماء أو العُشْب، فلا تتجه يميناً أو يساراً، بل هي ذاهبة إلى مكان محدد لها، حيث يوجد العشب أو الماء، والسائق يسوقها أمامه حتى يُوصِّلها إلى هذ المكان.. ولماذا يسوقها أمامه؟

لماذا لا يجرُّها خلفه؟ أو لماذا لا يأتي بواحدة أو اثنتينْ من هذا القطيع، فيسوقهما والكل يتبعه، لأنه لو فعل ذلك وجعلها خلفه يمكن لواحدة منها أن

تنحرفَ يميناً أو يساراً، أو تبتعد عن الطريق دون أنْ يدرك هو ذلك، ولكنها حين تكون أمامه إذا انحرفتْ أي واحدة منها يميناً ويساراً فإنه يجري ويعيدها إلى الطريق المستقيم.

وهذا التشبيه الذي أعطاه لنا القرآن الكريم جملةً هو الذي سيحدث يوم القيامة تفصيلاً، فعندما يُنفخ في الصور ونخرج من القبور سيكون لكل واحد منا سائق ينتظره.. ذلك السائق من الملائكة الذين لا يعصون اللّه ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمرون، وهذا المَلَك مُكَلَّفٌ بأنْ يسوقَ الإنسانُ من مكان الحشر على هذه الأرض التي نعيش فيها إلى مكانه المحدَّد له في أرض المعاد، حيث سيتم الحساب.

وهذا الملَك يكون خلف الإنسان.. تماماً كما يكون سائق الأغنام خلفها.. والإنسان لا يغيب عن الملَك المكلَّف به ولو لحظة، ولو برهة.. بل يسوقه الملك وهو أمامه، حتى مكانه في أرض المعاد، ويكون حريصاً عليه لا يستطيع الإنسان أن ينحرف يميناً أو يساراً، فإذا انحرف قام الملَك بتصحيح مساره.

ولكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [قَ: ٢١].

أي: ليس معها فقط سائق يُوصِّلها إلى المكان المحدَّد لها في أرض المعاد، بل معها أيضاً الشهيد، وهو أعمالها.. شريط حياتها.. ما فعلتْه في الدنيا لحظةً بلحظة.. حتى أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا لمحة عن دِقَّة الحساب، فيقول:

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

الكتاب شاهد على الإنسان:

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

أي: وضعته الملائكة بأمر من اللّه تعالى، فيُعطون كل واحد كتابه، فهي ـ إذن ـ صور متعددة، فمَن أخذ كتابه بيمينه فرح، وقال:

﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

يعرضه على ناس، وهو فخور بما فيه؛ لأنه كتاب مُشرِّف، ليس فيه ما يخجل؛ لذلك يتباهى به، ويدعو الناس إلى قراءته، فهو كالتلميذ الذي حصل على درجات عالية، فطار بها ليعرضها ويذيعها.

وهذا بخلاف مَن أُوتي كتابه بشماله، فإنه يقول:

﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ـ ٢٩].

إنه الخزي والانكسار والندم على صحيفة مخجلة.

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩].

أي: خائفين يرتعدون، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يصور لنا حالة الخوف هذه ليُفزع عباده ويحذرهم ويُضخِّم لهم العقوبة، وهم ما يزالون في وقت التدارك والتعديل من السلوك، وهذا من رحمة اللّه تعالى بعباده.

فحالتهم الأولى الإشفاق، وهو عملية هبوط القلب ولجلجته، ثم يأتي نزوع القول: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ [الكهف: ٤٩].

يا: أداة للنداء، كأنهم يقولون: يا حسرتنا يا هلاكنا، هذا أوانك فاحضري. ومن ذلك قوله تعالى في قصة ابني آدم عليه السلام لما قتل قابيل هابيل، وكانت أول حادثة قتل، وأول ميت في ذرية آدم؛ لذلك بعث اللّهُ له غراباً يُعلِّمه كيف يدفن أخاه، فقال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ [المائدة: ٣١].

﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ أي: يا هلاكي.. كأن يتحسَّر على ما أصبح فيه، وأن الغراب أعقل منه، وأكثر منه خبرة؛ لكي لا نظلم هذه المخلوقات ونقول: إنها بهائم لا تفهم، والحقيقة: ليتنا مثلهم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. أي: لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عَدَّها وحسبها.

﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]. فكلُّ ما فعلوه مُسجَّل مُسطَّر في كتبهم.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ عادل لا يؤاخذهم إلا بما عملوه.

إذن: هذا الكتاب الشاهد على الإنسان.. الشهيد عليه.. لا يترك شيئاً صغيراً بسيطاً إلا أحصاه، فإذا كان لا يترك صغيرة، فإنه من باب أَوْلَى لا يترك كبيرة.

obeikandi.com

تصوير البعث.. وشِدَّة الهول

كيف سيكون الناس في يوم البعث.. يوم الهول العظيم؟

أحوال كثيرة.. ومشاهد كثيرة مختلفة أعطاها لنا القرآن الكريم، ولا نستطيع أنْ نتعرض لها كلها في هذا الكتاب.. ولكن موعدنا إن شاء الله في أكثر من كتاب قادم.

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

هذا تصوير دقيق للحالة التي سيكون عليها الناس ـ كل الناس ـ يوم البعث وقبل الحساب.. وهم يُساقون من الأرض التي نعيش عليها، وبُعثنا منها إلى أرض المعاد.. عقولهم من هَوْل الموقف ستكون ضائعة، فالأم التي هي في الحياة الدنيا أحرصَ الناس على ابنها، تتابعه أينما كان، وتلحظه أينما وُجد، وبخاصة إذا كان رضيعاً صغيراً.

هذه الأم ستذهل عن ابنها، يكون أمامها فلا تراه.. ويناديها فلا تجيبه، ويقترب منها فلا تحس به.. ذهول تام من هَوْل الموقف.

فالناس في يوم الحساب.. كل واحد منهم مشغولٌ بنفسه، يفكر في ذاته، ولا يدور في فكره أيّ شيء آخر.. إنه يريد أن ينجوَ من هذا الهول العظيم، يريد أن يطمئن إلى مصيره، وقد أصبحتْ القيامة حقيقة واقعة أمامه.. يراها بعينيه، ويتابع أحداثها بنفسه بعد أنْ كانت غيباً عنه.

اللحظة التي يفيق فيها الإنسان، ويعرف أن يومَ القيامة قد جاء، وأن ساعةَ الحشر قد بدأتْ.. يذهب عن عقله كلُّ ما كان فيه، ولا يفكر إلا في نفسه.. إنه يومٌ كما وصفه الله سبحانه وتعالى:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

obeikandl.com

وقوْل الحق سبحانه: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ٢].

أي: أن المرأةَ التي تعتز في الحياة الدنيا بجنينها تتخلص منه، فهي لا يشغلها إلا نفسها، وعندما يُساق الناس إلى أرض المعاد لا يمشون بخُطى ثابتة.. لا يكونون ثابتين في مَشْيهم وفي تقدُّمهم.. بل من الرعب الذي يجتاح القلوب يترنّحون يميناً ويساراً كالسكارى، حتى إنك إذا نظرت إليهم تعتقد أنهم قد فقدوا اتّزانهم من الخمر، ولكنهم حقيقةً لم يتناولوا قطرة واحدة من الخمر.

ولكن هَوْل الموقف الذي هم فيه، وشدة عذاب اللّه الذي يخشوْنَ أنْ يصيبهم يجعلهم كالسكارى، لا يستطيعون أن يحفظوا توازنهم، ويترنّحون في مشيتهم.

انشغال الإنسان بنفسه

ويزيد الصورةَ وضوحاً قَوْلُ الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ـ ٣٧].

إذا قرأت قول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذا، فإنك تعرف أنه سيكون هناك نداء أو تَنَادٍ بين الناس في هذا الموقف.. هذا ينادي هذا بحكم قرابة الدنيا، وبحكم الصلات التي كانت بينهم في حياتهم قبل الموت، ولكن الأنساب هنا تختفي، فلا يصبح كلُّ واحد ملتفتاً إلى تحية أو سلام أو لقاء، رغم أنهم افترقوا لفترة طويلة.. كل واحد منهم يقول: نفسي نفسي.

فإذا ناداه أو حاول أنْ يحتميَ به مثلاً أحدٌ من أقاربه فإنه يتركه ولا يرد عليه، بل يفر منه، فإذا ظن الابنُ مثلاً أنه يمكن أنْ يستنجدَ بأبيه الصالح في هذا اليوم، فإن هذا الأب لن يلتفت إليه ولن يستمع إلى كلامه، ولن تشفع القرابة بين الاثنين، لأن القرابة والأُلفة والأنساب تنفع في الحياة الدنيا، فيتجه الإنسان إلى أبيه أو أبنائه لينصروه في ساعة الشدة، ويقفوا معه في ساعات العسرة، وهم في دنيا الأسباب يفعلون ذلك.

ولكن في هذا اليوم.. كل واحد منهم مشغول بنفسه عن الآخرين.. يريد أن يهرب من أولئك الذين قد يصيبهم العذاب من اللّه، لا يريد أن يتعلّق به أحد، ولا أن يحمل من أوزار أحد، بل يبتعد قدر الإمكان عن الناس، كل الناس، متمنياً أنْ يُنجيه اللّه من العذاب.

الحوار بين كلٍّ من المؤمن والكافر

هكذا يُساق الناس إلى أرض المعاد، وهم يترنّحون من هول الموقف..

مشيتهم غير متّزنة.. وخُطواتهم غير ثابتة.. وكل مَنْ له عمل صالح يريد أنْ يهربَ ممن لهم أعمال سوء.. ينادونه فلا يردّ عليهم.. ويستنجدون به فلا ينجدهم، ويظنون أن قرابته لهم أو صداقته لهم ستشفع لهم في ذلك اليوم، ولكنه لا يلتفت إليهم، لقد كانت هناك مظنة أنه سيعاونهم.

وترى أولئك الذين اجتمعوا على حب الدنيا، واجتمعوا على معصية اللّه.. يفرون من بعضهم البعض، وهم أعداء ألدَّاء، صداقتهم في الدنيا قد تلاشت تماماً، وكيف لا وكلّ منهم قد ساعد الآخر على أن يكونَ من أهل النار.. كل الناس في هذا الموقف أعداء إلا المتقين.

لماذا لا يكون المتقون أعداءً لبعضهم البعض في ذلك اليوم، لأن المتقين كانوا يتعاونون على الخير، إذا رأى واحدٌ منهم زميله يمشي في الخير وفي طاعة اللّه، يقول له: عليك أن تكثر من فعل الخير.. وإذا رأى أحدهم صديقه يمشي في طريق الشر والمعصية يقف أمامه وينصحه حتى يعود إلى طريق الخير.

لقد كان المتقون يتعاونون على الخير فَوَقوا أنفسهم عذاب النار.. كل واحد منهم نصح الآخر.. والنصيحة كانت نافعة لينجو من العذاب في هذا اليوم العظيم.

وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وهكذا تظهر الصورة الأولى ليوم البعث.. المؤمنون في هذا اليوم لهم نورٌ يمشون به وَسط ظلمات هذا اليوم العظيم.. والكافرون يحاولون أنْ يتقربوا من المؤمنين بأنْ ينادوا عليهم، أو يطلبوا منهم أنْ يشفعوا لهم، أو يكونوا لهم عوناً، ولكن هذا كله لا يفيد، لقد تقطعتْ الأسبابُ، وأصبح كلُّ إنسان مشغولاً بنفسه.

وتكتمل الصورة في قوْل الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

في هذه الآية الكريمة يعطينا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ صورة أخرى، ففي يوم الحشر والناس في طريقهم إلى أرض المعاد، من كثرة عدد الناس وشدة الزحام تسود الظلمة، فلا يرى الناسُ ما أمامهم .. اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يضيء للمؤمنين نوراً يمشون على هداه.

وحين يرى المنافقون ذلك النور، يحاولون أنْ يقتربوا من المؤمنين ليستعينوا بهذا النور على السَّيْر، دون التخبُّط الذي يفرضه الظلام.. حينئذٍ يُقال لهم: ارجعوا

فيُعادون بعيداً عن المؤمنين.. ثم يكون بينهم سور أو ما يشبه السور أو حاجز.

هذا الحاجز من ناحية المؤمنين، فيه رحمة اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ بما عملوا من صالح الأعمال، فيُحسون بالرحمة تحيط بهم من كل مكان.. بينما من الناحية الأخرى.. ناحية المنافقين والمنافقات.. يكون هذا السور مُحاطاً بعذاب اللّه، حيث يُحسون بالعذاب يحيط بهم.

وهكذا يمشي الاثنان.. المؤمن تحيط به رحمة اللّه ونوره.. والكافر والمنافق يحيط بهما عذاب اللّه.. وحينئذٍ يعرف الكفارُ والمنافقون الفرقَ، ويُحسون بأن العذاب يحيطهم.. بينما رحمةُ اللّه تحيط بالمؤمنين.

تذكير الكافر بظلمه في الدنيا

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤].

حينئذٍ عندما يُحِس الكفار والمنافقون بالفارق الكبير بين العذاب الذي يحيط بهم، والرحمة التي تحيط بالمؤمنين.. ينادي الكفار والمنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في الحياة الدنيا؟ ألم نَعِشْ معاً في وقت واحد؟

فيردّ عليهم المؤمنون: نعم لقد عِشْنا في وقت واحد، ولكنكم أيها الكافرون والمنافقون فتنتم أنفسكم بما تقدمه الدنيا من نعم زائفة، وكنتم تتربصون بعباد اللّه المؤمنين، لتؤذوهم وتدبروا لهم الشر، ودخلتْ في أنفسكم الريبةُ في أنكم مُلاقو اللّه، فظننتم أنكم لن تُلاقوه، وأنكم ستُفلتون من هذا اليوم.

وجاءت شياطينُ الإنس والجن لتقدم لكم الأماني الزائفة عما ستحققونه في الدنيا، فأصابكم الغرورُ بهذه الأماني، وتكبّرتم وتجبّرتم حتى جاء أجلكم، وجاء أمر اللّه، وجاء يومُ الحساب فوجدتم أن ما وعدكم اللّه حَقٌّ، وأن غرورَ الشيطان باطلٌ، فاليوم لا ينفعكم شيء، ولا ينجيكم من عذاب اللّه أحدٌ.

تلك هي بعض المشاهد التي ستحدث يوم القيامة، والناس يُساقون إلى الحساب على أن هناك مشاهدَ أكثر ساعةَ يُوضع الميزان، ويُحاسب الناس، يومها يفضح اللّه الكافرين أمام كل خَلْقه، ويحدث حوارٌ كبير يشهده الخَلْق جميعاً.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعرض لنا عدداً من هذه المواقف في القرآن الكريم، ليُرينا كيف ستكون أحوال العباد المختلفة، فلا المؤمنون على درجة واحدة، ولا الكافرون على درجة واحدة، ولكن لكلٍّ منا حالٌ من الأحوال.

obeikandl.com

هناك الذين كذبوا على اللّه.. وهناك الذين أشركوا باللّه.. وهناك الذين عبدوا غير اللّه.. وهناك الذين أضلوا الناس.. وهناك صور عديدة ومتعددة.. كُلّ في صورة.. كُلّ في شأن.

هذا يريد أنْ يفرّ.. وهذا يتمنى أنْ يكون تراباً.. وهذا يريد أنْ يعودَ ليعمل صالحاً.. ولو عاد لأفسد.. والناس حين يُساقون إلى أرض المعاد، يعطينا اللّه تعالى لأحوالها صوراً مختلفة في القرآن الكريم، لأن الناسَ في هذا اليوم العظيم لا يمكن أنْ يكونوا في حالة واحدة، ولكنهم في أحوال متعددة، وفي أول يوم الحشر هم في حال، وفي آخره هم في حال.

لقطات كثيرة، وكلُّ واحد من الناس له حالةٌ تناسب عمله، له حال مع اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يناسب ما قدَّمه في الدنيا، فكلُّ نفس بشرية لها عمل.. خيراً كان أو شراً.. فهو متفاوتٌ.. الخير متفاوت والشر متفاوت.

ولنستعرض معاً بعض هذه الصور التي ستحدث يوم القيامة.. هناك وجوه ستكون سوداء.. ووجوه ستكون بيضاء، مصداقاً لقوله:

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

هل البياض أو السواد يتعلق باللون.. أم يتعلق بالحالة؟ إنك في كثير من الأحيان ترى إنساناً إذا أصابه هَمٌّ، وبلغ حالة اليأس يقول لك: لقد اسودّتْ الدنيا في وجهي.. هل الدنيا اسودّتْ حقاً، ولونها أسود.. إن الدنيا كما هي، ولكن ما ينتظر هذا الإنسان من الهمّ والغَمّ قد جعل الدنيا تبدو سوداء في نظره، بحيث لا يرى فيه أملاً، ولا يرى شعاع النور.

وهناك إنسان آخر ترى وجهه، فتقول: إن وجهه أسود كأن غضبَ اللّه نزل عليه.. مع أنه لونه في الحقيقة.. لون وجهه يكون أبيض، وليس أسود.. ولكنك تُحِس من الهمّ الذي يركبه، والآثام التي يحملها أن وجهه أسودُ حالك السواد.

وكم من إنسان يكون وجهه أسودَ اللون فعلاً، وتراه مُشرقاً بالإيمان متلألئاً بالنور، تستبشر به وتقول: إن وجهه مشرقٌ. إذن: فاللون هنا ليس هو المحل، ولا يستطيع إنسان أنْ يقولَ: إن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ قد مدح الوجوهَ البيضاء في الدنيا، وذمّ الوجوهَ السوداء، وشبَّه بهم الكافرين بأن وجوههم سوداء.

نقول لك: لا.. إن عدلَ اللّه يأبى هذا.. ولا فرقَ بين عباد اللّه جميعاً.. بل

إن أهل جهنم في الآخرة قد يكون معظمهم من أصحاب الوجوه البيضاء في الدنيا، وأعمالهم يملؤها السواد.

إذن: فالسواد هنا معناه أنك إذا نظرتَ لهذه الوجوه بغَضّ النظر عن لونها، فإنك ترى سحابَ السواد يحيط بها، تراها وقد غاب عنها الإشراق.. تبدو ذميمة كالحة تُحس أن كلَّ ما حولها أسودُ.. فعملها أسود.. وحسابها أسود.. ومصيرها أسود.. ولا أملَ لها ولا فيها.

موكب الحشر يمضي، وهم يومئذٍ على صور مختلفة.. إنهم يمشون جماعات.. المؤمنون جماعات.. والكافرون جماعات.. وكل جماعة من أصحاب الوجوه السوداء في الآخرة يقولون:

﴿ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر: ٢٤].

قد ملأهم الندمُ وأحسُّوا بعظَم ما اقترفوا.. وجماعة أخرى من أصحاب الوجوه السوداء هم الذين كذبوا على اللّه:

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٧].

وجماعة يتمنونَ أن تُسوَّى بهم الأرض: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢].

وهناك صورٌ عديدة في القرآن الكريم تُبين أحوال الخَلْق جميعاً يوم القيامة.. فنجد خَلْقاً يحملون أوزارهم، والوزر هو المعصية والفسق وكل ما يُغضب اللّه.. ونجد خَلْقاً يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم. أي: أنهم لا يحملون خطاياهم فقط، بل هم يحملون خطايا أخرى.

ولكن كيف يمكن أن يحدث ذلك مع أن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ قال في كتابه العزيز: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨]. أي: أن كلَّ واحد يحمل ذنبه فقط وما اقترفه.. ولا يحمل إنسانٌ ذنبَ آخر.

وقد ضرب اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أمثلة في القرآن الكريم توضح لنا ذلك، وهذه الأمثلة في قمة الإيمان، ففرعون مثلاً كان من أشدّ العصاة للّه، نصَّب نفسه إلهاً في الأرض ليعبده الناسُ، وجاءه موسى بآيات كثيرة، فرفض أن يؤمنَ، بل استمر في ضلاله وفي ادعائه الألوهية.

حتى أن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ من كثرة ذنوب فرعون وعصيانه للّه وعده بأشد العذاب، فقال تبارك وتعالى:

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦].

ضَرْب الأمثال للناس.. للمؤمن والكافر

فرعون هذا الذي هو من أكفر أهل الأرض.. كانت له امرأةٌ صالحة مؤمنة، ومن شدة صلاحها وإيمانها ذُكرَتْ في القرآن الكريم: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

وهكذا نرى أن امرأةَ فرعون، وقد عاشتْ في قمة الإثم في عصرها في قصر فرعون، إلا أنها أخلصتْ للّه ـ سبحانه وتعالى ـ وطلبتْ منه النجاةَ من فرعون وعمله، ومن القوم الظالمين المحيطين به، فجاءت في الآخرة ومصيرها الجنة، ولم يُحمّلها اللّه من أوزار فرعون شيئاً.

وننتقل من قمة الإيمان إلى قمة المعصية.. امرأة نوح وهو نبي، وامرأة لوط وهو نبي.. تأمل قول الحق ـ سبحانه وتعالى:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠].

هذه قصة امرأتين كانتا في بيتَي نبوة، ولكنهما كفرتا باللّه، وارتكبتا الآثام، فكان مصيرهما إلى النار، ولم يشفع لهما أنهما كانتا زوجتَي نبيين، لأن أهل الأنبياء هم المؤمنون الذين آمنوا بهم وصدّقوا بالرسالة وعملوا بها.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى ابن نوح، وقد رفض أن يؤمن، وأصرَّ على الكفر، فلم يُغْنِ عنه أنه ابنُ رسول ونبي، وعندما أراد نوح أنْ يستغفر اللّه لابنه، وقال: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥].

رَدَّ اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ عليه: ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦].

وإبراهيم حين أراد أن يشفع لعمه آزر: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

وهكذا نرى أنّ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد أعطانا أمثلة في القرآن الكريم،

تؤكد لنا أن الإنسان لا يحمل يوم القيامة إلا ما ارتكب من أوزار أو من معاصٍ، وأن كل إنسان يُحاسب عن عمله، وأن أيَّ نفس لا تحمل إثمَ أو ذنبَ أو عقوبةَ ذنب اقترفته نفسٌ أخرى.

فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥].

لترى كيف يوضح الحق سبحانه أن النفس البشرية لها أحوال متعددة؛ وإذا أسرفتْ على نفسها في تلك الجوانب؛ فهي قد تسرف في الجانب الأخلاقي؛ والجانب الاجتماعي؛ وغير ذلك، فتأخذ وِزْر كل ما تفعل.

ويوضح هنا الحق سبحانه أيضاً أن تلك النفسَ التي ترتكب الأوزار حين تُضل نفساً غيرها فهي لا تتحمل من أوزار النفس التي أضلّتها إلا ما نتج عن الإضلال فيقول: ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥].

ذلك أن النفس التي تمَّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار في مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال. والحق سبحانه أعدل من أنْ يُحمِّل حتى المضلَّ أوزاراً لم يكُنْ هو السبب فيها.

ولذلك قال الحق سبحانه هنا:

﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥].

أي: أن المضلّ يحمل أوزار نفسه، وكذلك يحمل بعضاً من أوزار الذين أضلتهم تلك الأوزار الناتجة عن الإضلال، وفي هذا مطلق العدالة من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فالذين تم إضلالهم يرتكبون نوعين من الأوزار والسيئات؛ أوزار وسيئات نتيجة الإضلال؛ وتلك يحملها معهم مَنْ أضلوهم.

أما الأوزار والسيئات التي ارتكبوها بأنفسهم دون أن يدفعهم لذلك مَنْ أضلوهم؛ فهم يتحمَّلون تبعاتها وحدهم، وبذلك يحمل كلُّ إنسان أحمالَ الذنوب التي ارتكبها.

وقد حَسَم رسول اللّه ﷺ ذلك حين قال: «والذي نفس محمد بيده، لا ينال أحدٌ منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، بعير له رُغَاء، أو بقرة لها خُوَار، أو شاة تَيْعَر».

كيفية حَمْل الأوزار يوم القيامة

على أن السؤال هنا.. هو الصورة التي سيتم عليها ذلك.. هل سيحمل

الإنسانُ فوق ظهره عمارة أو عدة عمارات بناها بمال حرام؟ وهل من الممكن أن تكون الصورة هكذا؟ أم أن الناسَ سيحملون كتاباً فيه أعمالهم..

وكلما كانت هذه الأعمال سيئةً كان الحمْل على ظهورهم ثقيلاً يتعثرون به، لا يستطيعون المشي، وأحياناً يُضطرون أنْ يزحفوا على بطونهم، أو على رُكَبهم من ثِقَل ما يحملون.

الصورة هنا في غَيْب اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ ولكن من المؤكَّد أنهم سيشعرون بثقل عظيم على ظهورهم، ثقل يجعل هذه الظهور تئنّ مما تحمل، تجعل صاحبها ينقل قدميه بصعوبة بالغة، ويبذل جَهْداً كبيراً في أن يخطوَ خطوة واحدة.

وهنا يتلفت يميناً ويساراً، يبحث عَمَّن يساعده في هذا الحمل الرهيب، فلا يجد أحداً.. الكل يهرب منه ..واللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يكمل لنا الصورة، فيقول اللّه تعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

النفس العاصية والكافرة التي تحمل هذه الأثقال الرهيبة ستبحث يميناً ويساراً، تحاول أنْ تستنجدَ بأحد، وأول مَنْ يلجأ إليه الإنسان هُم أقاربه، فتحاول هذه النفس أنْ تستنجدَ بأولادها وإخوتها، ولكنهم جميعاً يهربون، ولا يحمل أحدٌ من هذا الحمل شيئاً، فيظل الحمل الرهيب يئنّ منه ظَهْر هذه النفس، وهي تحمله وتمضي به حتى مكانها في يوم القيامة.

كل هذا قبل الحساب؟ أم بعد الحساب؟

كل هذا وغيره يتم قبل الحساب.. بل إن هناك حواراً يجري بين اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ وأولئك الذين لم يستجيبوا لمنهج اللّه ولا دعوته، فيجمع اللّه المتخذين له ـ تبارك وتعالى ـ أنداداً، وذلك المتَّخذ نداً، ويواجههم حتى تكونَ الفضيحة تامة وعامة بين عابد عبدَ باطلاً، وبين معبود لم يطلب مرة من عابده أن يعبده، ومرة طلب منه.

فالذين يعبدون من دون اللّه شركاء.. منهم من عبد الملائكة، ومنهم مَن عبد رسولاً وجعله إلهاً، ومنهم مَن عبد صنماً، ومنهم من عبد: شمساً أو قمراً أو جنّاً. إذن: فالمعبودون متعددون، والعابدون متعددون، وكل معبود وكل عابد له حكم في ذلك الحشر، والمواجهة ستكون علنيةً، يراها الناسُ جميعاً من عهد آدم إلى يوم القيامة.

هذا الحوار الذي سيتم، وهذه المواجهة ستكون أمام الأشهاد جميعاً، قد يتساءل بعض الناس: كيف يمكن لهذا الخَلْق كله أنْ يشهدَ ويسمع، ويرى هذا الحوار مع وجود هذا العدد الهائل من البشر؟

نقول لهؤلاء جميعاً: لو فكرتم قليلاً لما أصابتكم الدهشة.. ماذا يحدث الآن عندما يكون هناك حدث مهم في العالم تنقله الأقمار الصناعية، ألا تستطيع الدنيا كلها أنْ تراه في جميع الأماكن بالأرض في وقت واحد؟

إذا كانت هناك مثلاً بطولة العالم لكرة القدم، ألا نستطيع أنْ نشهدها هنا في مصر في عشرات الألوف من المنازل في وقت واحد.. ونسمع كل ما يدور هناك.. فإذا أحصينا ذلك في العالم أجمع نجد أن هناك ملايين المشاهدين في ملايين الأماكن المتفرقة من أقصى الدنيا إلى أقصاها، يستطيعون أنْ يشهدوا هذا الحدث في نفس لحظة حدوثه بالصوت والصورة.

إذا كانت هذه قدرة البشر للبشر، فكيف بقدرة اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ ألا تستطيع قدرة اللّه أنْ تجعل خَلْق اللّه كلهم يرؤن هذا الحوار ويشهدونه، وهم في أماكنهم؟ إن ذلك على اللّه يسير.

المهم أن هذا الحوار سيكون علنياً يشهده أهل الأرض كلهم، يرون ويسمعون ما يدور.. سيرون ما يحدث، وكيف سيكون الحساب، وذلك مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣].

المعبودون الذين عبدهم هؤلاء المشركون، إما أن لهم علماً بهذه العبادة، أو لا علم لهم بها، الذين لا علم لهم بأنهم معبودون، ولا دعوة لهم إلى الناس أن يعبدوهم، كالأصنام والشمس والقمر والأشجار والأحجار والرسل الذين اتخذوهم آلهة.

ولكن المعبود الذي له علم وله دعوة للناس لأنْ يعبدوا غير اللّه إنما يتركز في شياطين الجن وشياطين الإنس.. ذلك أن إبليس وذريته وشياطين الإنس هم الذين يسعوْنَ في الأرض ليفسدوا منهج اللّه، هم الذين يحاولون أنْ يُغْروا الناس بالشرك، ويُزينوا لهم السوء، وهؤلاء على علم بما يعملون، أما باقي مخلوقات اللّه فلا علمَ بأنها تُعبد، ولا مطلبَ لها في ذلك، بل هي مُسبِّحة للّه خاشعة.

وهنا في يوم القيامة، تحدث مواجهة بين الذين عبدوا غير اللّه وبين مَنْ عبدوا اللّه، هذه المواجهة تتم بين كل مخلوقات اللّه ما عدا الملائكة. ذلك لأن

الملائكة لا يواجههم الله سبحانه بمَنْ عبدوهم، ولكن يسألهم مِصداقاً لقوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وهكذا يتبرأ الملائكة من أنهم كانوا معبودين من دون الله، والله يعلم ذلك لأن الملائكة: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

البراءة من المشركين

تأتي بعد ذلك المواجهة مع الشمس والقمر والنجوم والأصنام، فتبرأ جميعاً ممن عبدها من البشر، وتقول: ﴿ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ [سبأ: ٤١].

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وهكذا تقف كلُّ هذه المخلوقات لتعلن أمام الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنهم لا علمَ لهم بمَنْ اتخذوهم آلهة، وأنهم لم يدعوا أحداً لاتخاذهم آلهة، ولذلك فعندما يخاطب الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأحجار التي اتخذوا منها أصناماً.. تقول الأحجار:

عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبَدُ لِلَّهِ ... مِنَ الْقَائِمِينَ فِي الْأَسْحَارِ

ذلك أن هذه الأحجار تُسبِّح بحمد الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ ﴾ أي: ما من شيء، كل ما يُقال له شيء.. والشيء هو جنس الأجناس، فالمعنى أن كلَّ ما في الوجود يُسبِّح بحمده تعالى.

وقد وقف العلماء أمام هذه الآية، وقالوا: أي تسبيح دلالة على عظمة التكوين، وهندسة البناء، وحكمة الخَلْق، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى مُنزَّه ومُتَعَالٍ وقادر، ولكنهم فهموا التسبيحَ على أنه تسبيحُ دلالة فقط؛ لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيحَ ولم يفهموه.

وقد أخرجنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ من هذه المسألة بقوله: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إذن: يُوجد تسبيحُ دلالة فعلاً، لكنه ليس هو المقصود، المقصود هنا التسبيح الحقيقي كلٌّ بلغته. فقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ يدل على أنه تسبيحٌ فوق

تسبيح الدلالة الذي آمن بمقتضاه المؤمنون، إنه تسبيح حقيقي ذاتي ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس.

وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح، فقد قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

إذن: كل شيء في الوجود علم كيف يصلي للّه، وكيف يُسبِّح للّه، وفي القرآن آيات تدلُّ بمقالها ورمزيتها على أن كلَّ عالم في الوجود له لغةٌ يتفاهم بها في ذاته، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لغته، فكيف نستبعد وجودَ هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها؟

بعض الناس يتساءلون: هل ستتحدث الأحجار يوم القيامة؟ وهل ستنطق؟

نقول لهم: إن كلَّ شيء سينطق يوم القيامة.. تسألوننا: كيف سينطق؟ وبأيِّ لغة سيتكلم؟ ولكنها ستكون بلغة يفهمونها جميعاً، فإذا كان الإنسانُ سيفهم لغةَ العين والسمع والجلود، ويعاتب أعضاء جسمه، فيقول لهم:

﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١].

ومعنى ذلك أنهم فهموا كلامهم.. وإلا لَمَا قالوا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾، فترد الجلود والأسماع والأبصار: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

إذن: هناك حوار سيدور بين الإنسان وسمعه وبصره وجلده في لغة يفهمها الإنسان، وتفهمها هذه الأعضاء كلها، وإلا فإنه لا يمكن أنْ يدور حوار إلا بين اثنين يتكلمان لغة مشتركة.

فلو أننا أتينا برجل إنجليزي لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية، ورجل عربي لا يفهم كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية.. هل يمكن أنْ يدور بينهما حوار؟ طبعاً لا، ولكن لا بدَّ أن تكون هناك لغة مشتركة، وسيعلمنا اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يوم القيامة لغة كل أجناس الأرض، ولغة كل مخلوقاتها التي نراها، والتي لا نراها حتى يدور بيننا الحوارُ على أوسع مدى.

فنحن سنكلم الملائكة ونراهم ويروننا، ونحن سنرى إبليس وذريته، ويدور بينه وبين الكافرين حوارٌ، وكلُّ شيء سيتكلم وينطق، كل شيء كان صامتاً في هذه الدنيا.. سيتكلم وسينطق وسيشهد، حتى الأشياء التي سخَّرها اللّه لإرادة الإنسان، وجعلها خاضعةً لهذه الإرادة في الدنيا، كاللسان مثلاً الذي جعله اللّه صالحاً لأنْ يقولَ كلمة الإيمان، وأنْ يقول كلمة الكفر والعياذ باللّه.

فإذا أمر الإنسانُ لسانه أنْ ينطقَ كلمة الكفر أطاعه ونطقها، ولكن هذا اللسان

عابد وطائع ومُسبِّح، ولذلك يأتي يوم القيامة ويشهد على صاحبه، بأنه أجبره على نُطق كلمة الكفر، بما جعله الله مُسخَّراً لإرادة الإنسان.

ولكن، عندما تخمد الإرادة البشرية بالموت، يشهد كل شيء على الإنسان، ولا يملك الإنسانُ أنْ يقهر عضواً من أعضائه، على أنْ يفعل ما يغضب الله، بل كلُّ هذه الأعضاء تشهد على الكافر وتلعنه، لذلك فإن الحجارة التي هي أعبد لله من كثير من البشر، ستشهد على مَنْ عبدوها يوم القيامة وتتبرأ منهم، وكذلك الشمس والقمر والنجوم، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[البقرة: ١٦٦].

فإذا انتقلنا إلى البشر، وعلى قمَّتهم الرسل، يأتي الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعيسى ابن مريم: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

وهكذا يتبرأ الرسل من الذين عبدوهم من دون الله، ويجد أولئك الذين أشركوا بالله أنفسهم في موقف حقير جداً، فهؤلاء الذين عبدوهم في الدنيا وقدَّموا لهم القرابين، وأتعبوا أنفسهم في إقامة التماثيل لهم من الذهب والفضة والمعادن النفيسة، هؤلاء الذين أمضى المشركون حياتهم يتقربون إليهم يبتعدون عنهم، لأنهم رجس، ولأنهم عملٌ غيرُ صالح، لا بدَّ أنْ يبتعدَ عنه الناس جميعاً في هذا اليوم العظيم.

ويُحِس أولئك المشركون بتفاهتهم وعِظَم ذنبهم، ويتمنوْنَ لو أنهم سُيِّرتْ بهم الأرض أو كانوا تراباً، بدلاً من أن يقفوا هذا الموقف المخزي أمام الله سبحانه.

فيوم القيامة سيحشر اللهُ هؤلاء جميعاً، فهناك مَن عبده الناس وهو لا يدري عن عبادتهم شيئاً، فالشمس والقمر والنجوم والأحجار والأشجار وغيرها لم يطلبوا من أحد أنْ يعبدهم، بل هم أعبدُ لله من القائمين في الأسحار، وهم لم يرسلوا رسلاً إلى البشر ليقولوا لهم: اعبدونا. أو: ليبلغوهم بمنهج عبادة.

فالشمس لم ترسل رسولاً مثلاً إلى مَنْ عبدوها لتدعي أنها إلهٌ، وتطلب منهم أنْ يسجدوا لها وتقول لهم: إن منهجي كذا وكذا.. وكذلك النجوم والأحجار التي اتخذوا منها أصناماً.

لذلك، فإن هؤلاء جميعاً يتبرأون يوم القيامة من أولئك الذين اتبعوهم، ويتجهون لله ـ سبحانه وتعالى ـ يُسبِّحونه، بل إن الأحجار التي عبدها الناس،

يجعلها اللّهُ سبحانه وقودَ النار يوم القيامة، وتكون الأحجارُ سعيدةً بذلك، وهي تحرق مَن عبدها من دون اللّه وتُذيقه العذاب.

كما أن هناك من الرسل مَن اتخذ الناسَ آلهةً، يُؤتَى بهم يوم القيامة ليتبرءوا أمام الأشهاد، أمام خَلْق اللّه كلهم، من الذين اتبعوا واتخذوهم آلهة.

وفي هذا يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لعيسى ابن مريم عليه السلام:

﴿ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ ﴾ [المائدة: ١١٦].

بماذا يردُّ عيسى ابن مريم؟ يقول: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ [المائدة: ١١٦].

أي: تعاليتَ يا ربِّ، وتنزّهتَ عن هذا، فنحن جميعاً عبيدك، نُسبِّح بحمدك، ثم يُكمل عيسى ابن مريم كلامه:

﴿ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

وهكذا يتبرأ عيسى عليه السلام من أولئك الذين اتخذوه إلهاً، ويقول: إن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم ما نعلن وما نخفي، فإنْ كان عيسى عليه السلام قد قال هذا علناً فقد علمه اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ وإنْ كان قد قاله سراً وفي نفسه فقد علمه اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ لأنه يعلم ما تُخفي الصدور.

ويكون هذا على مَشْهد من جميع خَلْق اللّه منذ عهد آدم إلى يوم القيامة، وهم يشاهدون كل ما يحدث ويتابعونه لتكونَ الفضيحة عَلَناً، وأمام كل خَلْق اللّه.

الحوار الذي دار بين شياطين الإنس والجن

ثم يأتي اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ بعد ذلك إلى شياطين الجن والإنس.. إلى إبليس الذي قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

إلى إبليس الذي أعلن من يوم الخَلْق الأول أنه سيكون عدواً لآدم وذريته، واستطاع أن يصلَ إلى ذلك بالقسم الذي يمكنه أنْ يفعل ما يقول، فقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]. أي: يا ربِّ نشهد أن لك العزة، وعِزَّة اللّه عن خَلْقه جعلته غنياً عنهم: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف: ٢٩].

فبهذه العِزَّة التي استغنى بها اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ عن خَلْقه، تدخَّل إبليس ليأخذَ حقَّ الغواية، ولذلك فقد قال: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣].

إذن: فكل مَنْ عبد اللّه مخلصاً وَقَاه اللّه غوايةَ إبليس، ولم يستطع أنْ يقدر عليه.. وكل مَنْ عبد اللّه وفي قلبه شكٌّ أو رياء أو نفاق، فإن غوايةَ الشيطان تدخل

إلى نفسه، فيُزيِّن له المعصية، وإبليس يعرف ناحية الضعف في الإنسان فيُغويه منها.

فإنْ كان الإنسانُ ضعيفاً أمام المال أغواه إبليسُ بالمال، وإنْ كان الإنسانُ ضعيفاً أمام النساء أغواه إبليسُ بالنساء، وإنْ كان الإنسانُ ضعيفاً أمام الحياء والسلطة والسلطان أغواه إبليسُ بالجاه والسلطان.

إذن: فقد بقي الحوار والمخاصمة بين إبليس وذريته وبين ذرية آدم، معزولاً عنها هؤلاء الذين أخلصوا العبودية للّه، فهؤلاء ليسوا طرفاً في الخصومة، لأن اللّه وقاهم ما يمكن إبليس وذريته من أن يُغووهم، فلم يعصوا ولم يشركوا، ولم يكفروا، وإنما عبدوا اللّهَ وأخلصوا له الدين.

يجمع اللّهُ إبليسَ وذريته، وهم الفاسقون من الجن، لأن هناك الجنَّ الصالحين المؤمنين، وهناك الجن الظالمون الفاسقون، فالجن الذين يتبعون إبليسَ في إغواء الإنسان، وفي إفساد منهج اللّه في الأرض.. هؤلاء هم الذين يُسَمَّوْنَ الشياطين، ولا بد أن نعرف أن الجنَّ هم مقابلُ الإنس ولهم اختيار، وأنه كما يوجد في الإنس طائعٌ وعاصٍ، كذلك يوجد في الجن.

العاصون هم الشياطين الذين يخدمون فكرة إبليس في إغواء الإنسان بالكفر، ويوجد من الإنس مَنْ أغواهم الشياطين، فأصبحوا في خدمتهم يفسدون منهج اللّه، وهؤلاء هم شياطين الإنس.

إذن: فالحوار بين مَنْ ومَن؟ أيكون الحوارُ بين الذين عبدوا ولم يعرفوا شيئاً عن ذلك؟ أم يكون بين شياطين الإنس وشياطين الجن الذين خالفوا المنهج.

وقَوْل الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: ٢٢]، يشمل كل مخلوقاته: الملائكة، والأحجار، والكواكب، والرسل، والشياطين من الإنس والجن.. والخطاب في القرآن مُوَجَّهٌ للأحياء.. اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يقولَ لنا: اذكروا جيداً وأنتم في الدنيا أنكم ستُحْشرون حَشْراً إلى موقف تُفْضَحون فيه أمام كلِّ مخلوقات اللّه:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ٢٢].

إذن: فالكلام هنا: ونقول للذين أشركوا من الإنس والجن: مكانكم. وحين تسمع إنساناً يقول لك: مكانك. يعني: لا تتحرك حتى ينتهيَ هذا الموقف ويُحْسم. وهي كلمة وعيد، كلمة تهديد من اللّه سبحانه وتعالى. ومعناها: لا تتحركوا فإن لي معكم موقفاً، وهذا الموقف ليس في صالحكم.

الذين أشركوا يحسبون أنهم قد ضاعوا في زحام الآخرة، وأنهم أفلتوا من

المواجهة ومن الفضيحة أمام خَلْق الله . .والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول لهم: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، أي: كل الذين اجتمعوا على باطل يُجْمَعون معاً.

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يريدهم في معسكر واحد، إنه يريد الذين أغووهم في معسكر، والذين قاموا بالغواية والإضلال في معسكر، والذين خضعوا لهذه الغواية في معسكر آخر.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

أي: مزّقنا بينهم، حتى يصبح هناك فريقٌ يواجه فريقاً: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

كيف الميزان؟

هُنا لا بُدَّ لنا من وقفة. . إذا كان هذا الحوار أو جزءاً من الحوار الذي يدور في الآخرة. . فهل هذا هو الميزان؟ وهل هذا هو الحساب؟ أم أن الحسابَ شيءٌ مختلفٌ تماماً عن كلِّ هذه المشاهد، بحيث هناك هذه المشاهد وحدها، ثم بعد ذلك يكون الحساب.

قبل أنْ نبدأ الإجابةَ عن هذا السؤال، لا بدَّ أنْ نردَّ على الفكرة التي تقول: إن هناك ميزاناً منصوباً في الآخرة، تُوضع فيه السيئاتُ في كِفَّة، والحسنات في كفة، فمَنْ ثقُلتْ حسناته وأعماله الصالحة يذهب إلى الجنة، ومَنْ زادتْ سيئاته على حسناته يذهب إلى النار.

فكرة ماديات الدنيا لا يمكن أنْ تكونَ في الآخرة، ليست المسألةُ أوراقاً مكتوبة بشكل مادي، وإنما فكرةُ الميزان هي فكرة العدل في أساسه، بل هي دِقَّة متناهية في العدل الذي لا يقوم شيءٌ بدونه.

لقد سُئِلَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف سيحاسب اللّهُ الناس في وقت واحد يوم القيامة؟ فقال علي رضي الله عنه: كما يرزقهم في وقت واحد في الحياة الدنيا.

الحقُّ سبحانه وتعالى يقول في سورة الرحمن: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

وما دام الحقُّ سبحانه وتعالى قد رفع السماء ووضع الميزان، فالسماء لا تقع على الأرض والنظام مُحْكَمٌ تماماً، الشمس تطلع من الشرق وتغرب في الغرب،

والقمر والنجوم تسير في مُنتهى الدقة والإبداع، لأنه لا دَخْلَ لأحد من البشر فيه. فإنْ أردتم أن تصلحَ حياتكم، وأن تستقيمَ أموركم كما استقامتْ هندسة السماء والأرض، فخذوا الميزان من السماء في أعمالكم، واتبعوا القول الحق: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ـ ٩].

وما دُمْتم قد رأيتم أن الأمور الموجودة التي تسير بنظام لا تتحكمون فيه تعمل باستقامة، وترون أن الفسادَ قد جاء من ناحية الأمور التي دخلتم فيها، فلماذا لا نتبع منهجَ اللّه في الأمور التي لنا دَخْل فيها؟ إنك إنْ عملتَ في الحياة بمنهج اللّه الذي خلق الحياة فإن أمورك تستقيمُ لك كما استقامتْ الأمورُ العُليا في الكون.

واحفظ جيداً قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٧، ٨].

ليحفظ كلٌّ منا هذا القول لنعرفَ أن الأمورَ العليا موزونةٌ، لأن يدَ الإنسان لا تدخل فيها.. إن السماء لا تقع على الأرض لأنها محكومةٌ بنظام مُحْكَم تماماً. والأرض لا تدور بعيداً عن فَلَكِها؛ لأن خالقها قد قدَّر لها النظام المحكم تماماً.

وأنت تدخل إلى دار القضاء مثلاً ترى رسماً للميزان موضوعاً في المكان الذي يجلس فيه القاضي.. هل القاضي يأتي بميزان مادي ليحكم القضايا؟ أم أن هناك ميزاناً في كل نفس، وضعه اللّه لتُفرِّقَ أنت بين الحق والباطل.

حينما تجد إنساناً في تفكير عميق، فإذا سألته: لماذا هو صامت؟ قال لك: إنه يزنُ الأمورَ قبل أنْ يتكلمَ.. هل جاء بميزان مادي؟ أم أن الميزانَ داخل نفسه.. يضع الحقيقة هنا، ويضع هذه الحقيقة هنا، ويزنُ كلَّ شيء بعقله.

وهل إذا جارَ عليك إنسانٌ وأخذ منك حقوقك، وقلتَ له: إن كفة الميزان مالتْ ناحيتك.. أيكون هناك ميزانٌ مادي؟ إن الميزان في الدنيا معناه الحق، معناه التفريق بين الحق والباطل، ومعناه العدل في كل شيء.

العقل يستطيع أن يعرف جيداً في كل أمر من أمور الدنيا، يستطيع أن يعرف إذا كانت كفة الميزان معتدلة أو مائلة .. اللّه وضع فينا فطرة الإيمان، ومع فطرة الإيمان فهمنا فكرة الميزان لنفرقَ بين الحقّ والباطل، ولا يستطيع إنسانٌ أن يمضي في الحياة دون أن يكونَ هناك ميزان في نفسه، يزن الأمور حتى بعيداً عن الدين.. هذا الميزان في عقل كلٍّ مِنَّا وفي تكوينه.

الإنسان عندما يُبعث يوم القيامة يكون معه سائقٌ وشهيد.. السائق عرفناه، هو

المَلَك المُكَلَّف به لكي يُوصِّله إلى المكان المحدَّد له، فلا يذهب يميناً أو يساراً، وإنما يسوقه أمامه.. والناس يوم القيامة يذهبون جماعات: جماعات من المؤمنين.. وجماعات من غير المؤمنين، أما الشهيد الذي مع الإنسان فهو عمله يشهد عليه.

اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُصَوِّر لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة، حيث يقف العبد بين يدي ربه عَزَّ وجَلَّ، فيدعوه إلى أنْ يقرأ كتابه بنفسه، ليكون هو حجةً على نفسه، ويُقِرّ بما اقترف، والإقرار سيد الأدلة.

فهذا موقف لا مجالَ فيه للعناد أو المكابرة، ولا مجال فيه للجدال أو الإنكار، فإنْ حدثَ منه إنكارٌ جعل اللّهُ عليه شاهداً من جوارحه، فَيُنطقها الحقُّ سبحانه بقدرته: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤].

ويقول سبحانه:

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ٢١].

وقد جعل الخالقُ سبحانه للإنسان سيطرةً على جوارحه في الدنيا، وجعلها خاضعةً لإرادته لا تعصيه في خير أو شر، فبيده يضرب ويعتدي، وبيده ينفق ويُقيل عثرة المحتاج، وبرِجْله يسعى إلى بيت اللّه، أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد.

وجوارحه في كل هذا مُسَخَّرَةٌ طائعة لا تتأبَّى عليه، حتى وإنْ كانت كارهة للفعل؛ لأنها مُنْقادةٌ لمراداتك، ففعْلها لك ليس دليلاً على الرضا عنك؛ لأنه قد يكون رضا انقياد.

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية، فأمْرُه نافذ على جنوده، حتى وإنْ كان خطأً، فإذا ما فقَدَ هذا القائدُ السيطرةَ وأصبح الجنودُ أمام القائد الأعلى بَاحُوا له بكل شيء.

كذلك في الدنيا، جعل اللّهُ للإنسان إرادةً على جوارحه، فلا تتخلَّف عنه أبداً، لكنها قد تفعل وهي كارهة، وهي لاعنةٌ له، وهي مُبغضة له ولفعله، فإذا كان يومُ القيامة وانحلَّتْ من إرادته، وخرجتْ من سجن سيطرته، شهدتْ عليه بما كان منه.

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

أي: كفانا أنْ تكونَ أنت قارئاً وشاهداً على نفسك.

إن من دِقَّة الكتاب الذي سيحمله الإنسانُ معه يوم الحساب أن المجرمين سيقولون: ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف: ٤٩]، أي: لا يترك كبيرةً أو صغيرةً إلا عَدَّها وحَسِبها.

﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، فكل ما فعلوه مُسَجَّل مُسَطَّر في كتبهم.

﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ عادل، لا يؤاخذهم إلا بما عملوه.

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ أحصى أعمالهم غاية في الدقة، حتى الأشياء النافعة التي نسيها الإنسان، والأشياء الصغيرة سيجدها في كتابه، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦].

شهادة الإنسان على نفسه:

ما معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]؟ وما هو الدليل الدامغ يوم القيامة لأنْ يكونَ الإنسانُ شهيداً على نفسه، إلا أنه يرى كلَّ حياته أمامه، كفيلم سينمائي سَجَّل كل شيء، فإذا أنكر أيَّ شيء فإنه يُواجَه بما كان يفعل بالدليل الدامغ.. وإذا كانت قدرةُ الإنسان في تسجيل الأحداث قد وصلتْ إلى هذا الحدِّ المذهل، فما هي قدرة اللّه سبحانه وتعالى.

قول الحق: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ۖ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

أي: كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك.. فكل إنسان ستشهد عليه نفسُهُ بكل ما حدث، ولن يستطيع أن ينكرَ شيئاً، لأنه سيرى كل شيء، لعل اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ غيرُ قادر على أن يُرينا حياتنا كلها، لحظةً بلحظة في ساعة الحساب.. أليس هذا ممكناً؟

إذن: فَفِيمَ المجادلة؟ وهل قدرة الملائكة أقلّ من قدرة الإنسان، بحيث تستطيع أية قوة من قوى التجسس في الدول المتقدمة، أو حتى المتخلفة.. أن تسجل على الإنسان الأحداثَ التي تقع وتواجهه بها، ولا تستطيع الملائكةُ الحفظةُ الأبرارُ أن تقومَ بأكثر من هذا، إن مجردَ النقاش في أن هذا ممكنٌ أن يحدث يرفضه العقل.

ونحن حين نمثل ما سيحدث يوم القيامة بالإمكانيات المادية الموجودة في

الدنيا، فإنما نحاول أنْ نقربَ ذلك من الأذهان.. ولكن اللّه الذي ليس كمثله شيء لن يجعلنا نرى كتابنا بهذه الطريقة البدائية.. بل في علمه أشياء وأشياء.

والمهم أن الإنسانَ سيرى كل ما فعله، وسيشهد ويسمع كل كلمة قالها، حتى يكون هو الشهيد على نفسه، ويكون عدلُ اللّه وأفعاله فلا يستطيع أن ينطق.

حينما يُواجه الإنسان بكتابه لا يستطيع أن ينكر، ولا أنْ يقول لم أفعل. ولا أنْ يجادل في أنه ظلم.. بل كلنا يوم القيامة سنشهد بعدل اللّه، حتى الذين سيخلدون في نار جهنم سيشهدون أن عقابهم حقٌّ، وأنهم الذين ظلموا أنفسهم، وأن اللّه لم يظلمهم.

قد يطلبون الرحمة.. قد يطلبون فرصة أخرى.. ولكنهم لا يمكن أن يَدّعوا مهما كان الكِبْر في صدورهم أنهم ظُلِمُوا في يوم الحساب.

حساب أئمة الكفر

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٦٨، ٦٩].

وهكذا نرى مشهداً آخر يوم القيامة.. الكفار وهم حول نار جهنم ساجدون من الذُّل والهَوَان، ومن وسط هؤلاء الكفار والعاصين يأتي اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أئمة الكفر، أولئك الذين كانوا يحاربون دينَ اللّه في الأرض، ويحاولون أن يُضِلوا المؤمنين.. تجدهم في كل مكان يسخرون من الذين آمنوا، ويُسفِّهون منهج اللّه.

وهم في ذلك أشداء. أي: يستخدمون كل ما لديهم من قوة، وكل ما يملكون من وسائل، فالإنسان حين يكون شديداً يجمع كُلَّ قواه لمواجهة الحدث الذي يشغله، وهؤلاء في الدنيا كانوا أشداءَ على دين اللّه، يستخدمون كل ما في إمكانهم من وسائل لمحاربة هذا الدين.

والحقيقة أن الكفار هم أغنى خَلْق اللّه من ناحية المنهج، فاللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يستخدمهم في إثبات منهجه، بينما هم يحسبون أنهم يفسدون هذا المنهج.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٢٩ـ ٣١].

هذه صورة يعطيها اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ لنا عن الكفار، إنهم في الدنيا يسخرون من المؤمنين، ويتغامزون عليهم، إلى آخر ما نراه في هذه الأيام مما يحدث بالنسبة للمؤمنين، وهم يحسبون أنهم يحاربون منهج اللّه.

ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً.. فهؤلاء الكفار إنما يثبتون منهج الإيمان، ويكونون هم أنفسهم دليلاً على صدق القرآن، وأنه مُنْزَلٌ من اللّه سبحانه وتعالى لأن اللّه أخبرنا في كتابه العزيز بأن هؤلاء سيسخرون ويتغامزون على المؤمنين في الدنيا، ولو أن لديهم فطنةً لما اتخذوا هذا السلوك.

وحينئذٍ كنا سنقول: إن القرآن قد قال لنا: إن المجرمين والكفار سيسخرون من الذين آمنوا في الدنيا، ولم يسخر منا أحدٌ، ولم يتغامز علينا أحدٌ، ولكن كَوْنَهم سخروا وتغامزوا قد أعطونا الدليل على صدق منهج اللّه، لأنهم فعلوا ما أنبأنا اللّه أنهم سيفعلونه.

وبذلك كانوا هم أنفسهم دليلاً على صدق المنهج، لأنهم جاءوا وفعلوا ما أخبرنا اللّه أنهم سيفعلونه، ولا يجب أنْ يضيقَ صدرُ المؤمن بهذه الأفعال، بل كلما حدثتْ قال المؤمن: سبحان اللّه.. لقد أخبرنا اللّه أنهم سيفعلون وفعلوا.. وصدق اللّه العظيم.. وأصبح هؤلاء المجرمون مُثبتين للإيمان، وهم يحسبون أنهم سيهدمونه.

تماماً كقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١].

والإنسان لا يدري كيف تمَّ الخَلْق.. ولا ما هي مراحله.. إلا أن يخبرنا اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ بها.. فهو جَلَّ جلاله يقول:

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١].

وما داموا لم يشهدوا خَلْق السماوات والأرض ولا خَلْق أنفسهم.. فلا بُدَّ أن نأخذَ ذلك عن اللّه، فما يُنبئنا به اللّه عن خَلْق السماوات والأرض وعن خَلْقنا هو الحقيقة، وما يأتينا عن غير اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ فهو ضلال وزيف.

ونحن الآن نجد بحوثاً كثيرة عن كيفية السماوات والأرض، وخَلْق السماوات والأرض، وخَلْق الإنسان. وكلها لن تصل إلى حقيقة. بل ستظل نظريات بلا دليل.

ولذلك قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١]،

أي: أن هناك مَنْ سيأتي ويضل. ويقول: هكذا تم خَلْق السماوات والأرض، وهكذا خُلِق الإنسان.

هؤلاء المضلُّون الذين جاءوا بأشياء هي من علم اللّه وحده.. جاءوا تثبيتاً لمنهج الإيمان.. فلو لم يَأتِ هؤلاء المضلون، ولو لم يقولوا خلقتُ الأرض بطريقة كذا. والسماء بطريقة كذا. لقلنا: إن اللّه تعالى قد أخبرنا في كتابه العزيز أن هناك مَنْ سيأتي ويُضل في خَلْق الكون وخَلْق الإنسان، ولكن كونهم أتوا هو في حَدِّ ذاته دليلٌ على صدق القرآن الذي أنبأنا بمجيئهم قبل أنْ يأتوا بقرون.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۞ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٦٨، ٦٩].

الحشر: أنْ يبعثهم اللّه من قبورهم، ثم يسوقهم مجتمعين إلى النار هم والشياطين الذين كانوا يُغرونهم بالمعصية ويزيِّنونها لهم.

﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٦٨].

يقال: جثا يجثو فهو جَاثٍ. أي: ينزل على رُكْبَتيه، وهي دلالة على الذِّلة والانكسار والمهانة التي لا يَقْوَى معها على القيام.

الذُّلُّ والهَوان يوم القيامة

يأتي اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يوم القيامة، وينزع أئمة الكفر هؤلاء.. ومعنى ينزعهم أنه يأخذهم بالقوة والقهر دون إرادتهم، فكأنهم يُنزعون نَزْعاً، ويأتي بهؤلاء على رءوس الأشهاد في المحشر، يرى الناس ـ كل الناس ـ هؤلاء الذين كانوا أعزاء في الدنيا يبارزون اللّه بالمعاصي.. في قمة الذل والهوان يوم القيامة.. وكأن اللّهَ يأخذهم من قمة العز والنعيم التي كانوا فيها في الدنيا، إلى قمة الذل والهوان في الآخرة وأمام خَلْق اللّه جميعاً.

على أننا قبل أنْ نمضيَ في الحديث عن مشاهد يوم القيامة.. لا بُدَّ لنا من وقفة عند حديث رسول اللّه ﷺ: «لا يدخل أحدُكم الجنةَ بعمله إلا أنْ يتغمَّده اللّه برحمته. قالوا: حتى أنت يا رسولَ اللّه؟ قال: حتى أنا».

إذا كانت هذه هي الحقيقة، فلماذا الحساب؟ وإذا كان الإنسانُ لا يدخل الجنةَ بعمله، فلماذا العمل الصالح شرطٌ لدخول الجنة؟ ألم يكُنْ من المنطقي أن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يُدخل مَن يشاء الجنة برحمته وكَفى؟

نقول للذين يثيرون هذا الكلام: إنكم لم تفهموا معنى حديث

رسول اللّه ﷺ، ذلك أن الأعمال الصالحة عند اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ لا تزيد من مُلْكه شيئاً.. والعمل الصالح مهما بلغ لا يمكن أن يتكافأ مع النعم التي أوجدها اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ فالنعم الموجودة في هذا الكون.. والنعم التي يُنعم بها اللّهُ علينا لا يمكن أن تتساوى معها الأعمالُ الصالحة في الدنيا مهما كانت.

ولقد قيل: إن هناك عبداً من عباد اللّه كان يعبد اللّه ليلاً ونهاراً، ولا يكفّ عن الصلاة والتسبيح والركوع والسجود.. حتى أنه قُبِضَ وهو ساجد.. وعندما جاء الحساب يوم القيامة قيل له: ادخل الجنة برحمة اللّه، فقال: بل أدخل الجنة بعملي.

فجاءوا بالميزان، ووُضعَتْ فيه كل الأعمال الصالحة للرجل.. ووضع في الكفَّة الأخرى نعمةُ النظر وحدها، فرجحت نعمة النظر. فقال الرجل: أدخل الجنة برحمة اللّه، فالعمل الصالح الذي يقوم به الإنسان في الدنيا لا يتساوى مع نعَم اللّه عليه.

والإنسان المؤمن عندما يتبع منهج اللّه، فإنه لا يعمل عملاً ينفع اللّه جَلَّ جلاله.. ولكن منهجَ اللّه لنفع الإنسان. يعطيه الحياةَ الطيبة في الدنيا، ويمنع عنه كثيراً من الشرور التي يتعرَّض لها إذ لم يتبع المنهج. فكما قلنا من قبل: إن المنهج يحمي الإنسان من المجتمع، وينقله من حياة الغابة إلى الحياة الآمنة المطمئنة.

تماماً كما تقول لابنك: ذاكر حتى تنجح. فإذا نجحتَ فَلَكَ مكافأة.. المذاكرة لا تفيد الأب، ولكنها تفيد الابن في مستقبله، وتزيد أمامه فرص الحياة لكي ينشأ، وهو قادرٌ على أن يكسب قوته، وقادر على أن يتقدم في المجتمع إلى أكبر المراكز.

إذن: فالمذاكرة للابن، وليست نَفْعاً للأب، فإذا أعطاه الأبُ مكافأة على نجاحه، فذلك فضل من الأب على ابنه.

واللّه ـ سبحانه وتعالى ـ حين وضع لنا المنهج، لم يضعه ليحقق لنفسه تبارك وتعالى نفعاً، فأنت حين تصلي لا تفيد اللّهَ صلاتُكَ، وإنما تعود عليك هذه الصلاة بالنفع بأنك تنضبط انضباطَ عبادة، يجعل اللّه معك، ينظرك وقت الشدة، ويسترك وقت الفضيحة، ويرزقك وقت العُسْر.

القوانين عند اللّه

اللّه قادر على أن يجعل خَلْقَه جميعاً يرونَ كل ما يحدث دون عناء أو تعب، كما ترى الدنيا كلها الشمسَ دون عناء أو تعب، وكما يرى الناس اليوم باستخدام

قوانين اللّه التي وضعها اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ في الكون ليروا جميعاً في وقت واحد.. وفي ملايين الأماكن المتفرقة حدثاً يقع في العالم في نفس لحظة وقوعه عن طريق الأقمار الصناعية.

وإذا كانت هذه قدرة البشر الآن.. فما هي قدرة البشر بعد آلاف السنين في نقل الأحداث بالصوت والصورة إلى كل أجزاء الدنيا، ثم بعد ذلك ما هي قدرة اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ في الآخرة؟

بقي المشهد الذي يتم بين الذين عبدوا غير اللّه عن علم وعن قصد، وهم شياطين الجن والإنس، أولئك الذين أفسدوا في الأرض.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

واللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يخاطب الجن، أو يخاطب شياطين الجن، فيقول لهم: لقد أخذتم نصيباً كبيراً من الإنس إلى جهتكم، فأضللتموهم وقُدتموهم إلى طريق الفساد، واللّه ـ سبحانه وتعالى ـ حين يخاطب الجن، ويقول لهم: استكثرتم من الإنس والجن، لا يردون.

ولكن مَنْ الذي يتكلم؟ الذي يتكلم هم الإنس الذي اتبعوا شياطين الجن، يقولون: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم﴾، أي: المتابعون لهم من شياطين الإنس: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨].

إذن: فالكلام هنا من الإنس عن أنفسهم، وأيضاً عن أوليائهم من الجن، إنهم يدافعون عن شياطين الجن الذين أخذوا كثيراً من الإنس إلى جانبهم.. كيف ذلك؟ لأن اللّه ـ سبحانه ـ أعطى الجن في تكوينهم ما لم يُعْطه للإنسان من ناحية التكوين، فجعل الجن يرونَ الإنس، بينما الإنس لا يرونهم، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وأعطى اللّهُ الجنَّ أيضاً قوةً أكثر من الإنس، ولذلك طلب سليمان مَن يحضر له عرش بلقيس ملك سبأ قبل أنْ تصل إليه، ومعنى هذا أن سليمان قال هذا الطلب بعد أن غادرت بلقيس ومَن معها اليمن في طريقهم إلى بيت المقدس. وكان في مجلس سليمان الإنس والجن وغيرهم.

لم يتكلم إنسي واحد ليقول: إنه يستطيع أنْ يُحضر عرش بلقيس.. لماذا؟ لأن الإنسَ مخلوق من طين، إمكانياته محدودة، فهو لا يستطيع أن يقوم بهذه

المهمة، بينما الجن مخلوق من نار، يستطيع أن ينفذ من الجدران والسواتر الحديدية، وأن يسافر وينتقل من مكان إلى آخر بسرعة هائلة.

ولذلك، فإن المخلوق من نار، قانونه نافذٌ بطبيعة تكوين النار التي تشع، فيخترق إشعاعها الجدرانَ، بحيث تصل حرارتها إلى مَنْ يجلس وراء الجدار.. هذه بعض قوانين الجن التي تختلف عن قوانين الإنسان.

لذلك عندما قال سليمان عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

سكت الإنس الذين كانوا في مجلس سليمان، لأن نَقْلَ العرش من اليمن إلى مكان سليمان يحتاج إلى زمن وإلى قوة وإلى سرعة، وهذه لا تتوافر في الإنس بحكم خَلْقهم، ولذلك كان أول مَنْ تكلَّم هو عفريت من الجن، أما الإنسان فلم يُدخل نفسه في تجربة يعلم أنه لا يستطيعها.

فسليمان قد علم أن ملكةَ سبأ في طريقها إليه لتعلنَ إسلامها، وهو يريد من الذي يذهب ليأتي بالعرش من قصر ملكة سبأ.. أن يتميز أولاً بالسرعة التي تتفوق على الإنسان بمراحل كثيرة، لأن هذا الذي سيذهب جالسٌ مع سليمان، بينما ملكة سبأ في طريقها إلى سليمان.

ولذلك، فلا بدَّ أنْ يقطعَ المسافة من مكان سليمان إلى قصر ملكة سبأ، ثم يحل العرش، ثم يحمله ويكون حريصاً عليه، ثم يأتي به إلى سليمان، كل هذا في وقت أقل من الذي ستقطع فيه بلقيسُ ملكةُ سبأ المسافةَ بينها وبين سليمان، وكانت قد قطعتْ فعلاً جزءاً من الطريق.

obeikandl.com

كيف ينجو الإنسان يوم القيامة؟

إذا كان العمل الصالح لا ينفع إلا صاحبه، وكان الموقف يوم القيامة أن كل الأعمال الصالحة لا تتساوى مع نِعَم اللّه.. فلماذا الحساب؟ نقول: إن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ جعل هذه الأعمال الصالحة شرطاً لفضله ورحمته.. فأنت إذا لم تقدم هذا العمل الصالح في الدنيا فإنك لا تستحق، ولا تدخل ضمن مَن يستحقون فَضْل اللّه ورحمته في الآخرة.

ولذلك فَلِكَي تحصل على الفَضْل، ولكي تستحق الرحمة لا بُدَّ أن تقدم العمل الصالح أولاً، فإذا لم تقدمه منع عنك هذا كله.. وهذا هو معنى حديث رسول اللّه ﷺ: «لا يدخل أحدُكُم الجنة بعمله».

أي: أن هذه الأعمال الصالحة عندما تُوضَع في الميزان لا تُدخِل صاحبها الجنةَ، ولكنها شرطٌ لكي يشمله اللّهُ برحمته فيدخل الجنة، ويفيض اللّه من فضله عليه ما يشاء.

على أننا لا بُدَّ أنْ نتنبه إلى أن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ قد بيَّن لنا هذا الفضل في الدنيا، فجعل الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وجعل السيئةَ بمثلها، ووضع معها المغفرة والرحمة والتوبة ليمحوَ منها الكثير، ولو أننا كنا نُحاسَب بعدل اللّه وحده لكانت السيئةُ تساوي الحسنةَ، ولَمَا تدخَّلتْ مغفرة اللّه ورحمته لتمحوَ السيئات وتُزيلها.

ولكن اللّه ـ سبحانه تعالى ـ يريد أنْ يلفتنا ونحن في الدنيا إلى أنه يعاملنا بفضله.. ولو عاملنا بعَدْلِهِ لَهلك كلُّ مَنْ في الأرض بذنوبهم، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

إذن: فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ ونحن في الدنيا يعاملنا بالفضل.. فإذا كنا في الآخرة كان فضلُه أعمّ وأشمل، فكلُّ نعمة من نِعم اللّه في الجنة هي من فضل اللّه علينا، وليست حقاً مُكتسباً لنا.

وإذا كان رسول اللّه ﷺ، وهو قمة الإيمان، وقمة العمل الصالح والمعصوم

من اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: «حتى ولا أنا».. فهو تشبيهٌ يريد رسول اللّه ﷺ أنْ يعطيه لنا لنتأكدَ أنه مهما بلغتْ الأعمال الصالحة، فالإنسان محتاجٌ لفضل اللّه ليدخل الجنة.

فرسول اللّه ﷺ أكثرنا عملاً، وأقلُّنا ذنباً، وأقربنا إلى اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ فإذا كان الرسولُ بكل هذه الصفات سيدخل الجنةَ برحمة اللّه، فمن باب أوْلَى ألاَّ يدَّعي عبدٌ أو يقول إنه سيدخل الجنة بعمله، فكلنا محتاجون لفضل اللّه، ذلك الفضل الذي يمحو السيئات، ويضاعف الحسنات أضعافاً مضاعفة.

على أننا لكي نُكمل الصورة لا بدَّ أن نتحدثَ عن مشهد من مشاهد القيامة.. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

هل هذا القضاء حساب؟ وهل سيُحاسَب النبيون يوم القيامة؟ إذا أخذنا الآية فإنها تجمع بين الشهداء والنبيين، والمعروف أن الشهداءَ يدخلون الجنة بلا حساب.. وفي سورة يّس جاء العبد الصالح ليدعو الناسَ إلى الإيمان ويطالبهم باتباع المنهج الذي نزل على الرسول.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يّس: ٢٠، ٢١].. إلى آخر ما جاء في الآيات.

عندما قال الرجل الصالح ذلك، ودعا الناس إلى اتباع النبيين قتله الكفار.. فماذا قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يّس: ٢٦، ٢٧].

أي: أن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ قسم له دخول الجنة ساعة استشهاده.. ولم يُنظره إلى يوم القيامة، والدليل على ذلك أن الآية تقول: ﴿يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يّس: ٢٦، ٢٧].

ولو كان هذا القضاء في الآخرة لَمَا قال الرجل: ﴿يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾، لأنه في هذه الحالة وفي يوم الحساب سيعلم قومه جميعاً بدخوله الجنة.. إذن: فاللّه ـ سبحانه وتعالى ـ قسم الجنة ساعة الاستشهاد، وإذا كان الشهداء يتخَطونَ مرحلة الموت مصداقاً، لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وما داموا أحياء عند ربهم، والحياة عند اللّه هي الحياة الخالدة التي لا موتَ

بعدها، وما داموا هم يُنَعَّمون في هذه الحياة فقد قسم اللّهُ لهم الجنة ساعةَ استشهدوا.. بينما أُجِّلَ باقي خَلْق اللّه إلى يوم القيامة.

هذه هي منزلة الشهداء عند اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ والنبيون منزلتهم أعلى من الشهداء، لأنهم في الآية الكريمة: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

أي: أنهم يسبقون الشهداء.. ولكن النبيين يحضرون يوم القيامة لا ليُحاسبوا على أعمالهم، ولكن ليكون كلُّ نبي شهيداً على أمته، وتكون الأمةُ شاهدةً على أن الرسولَ قد بلّغ الرسالة، وبذلك يحضر الشاهد والمشهود.. وفي هذا يكون هناك تقريع للعاصين حتى لا يستطيعوا أنْ ينكروا أن الرسول قد بلّغ، وحتى يكون هذا التقريعُ أمام خَلْق اللّه كلهم.

obeikandl.com

سؤال عيسى عليه السلام

الأنبياء معصومون.. فكيف يكون هناك حسابٌ لمن عصمهم اللّه من المخالفات والذنوب والمعاصي.. وإنما شهادة على أن الرسول قد بلّغ.. وتقريع لأولئك الذين حرّفوا المنهج أو خالفوه.

ولذلك، فإنك لو التفتّ لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

يأتي هذا السؤال من اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ إلى عيسى ابن مريم عليه السلام، حتى لا يستطيع أحدٌ من الذين اتخذوا عيسى ابن مريم إلهاً، أن يأتي ويدّعي يوم القيامة أن عيسى عليه السلام هو الذي أمر الناسَ أنْ يعبدوه، ولذلك يأتي اللّه جلّ جلاله بعيسى ابن مريم أمام مشهد الخَلْق جميعاً ليسأله:

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ويرد عيسى عليه السلام ليُكَذِّب أولئك الذين اتّخذوه إلهاً، ويُقرّعهم فيقول:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

وهكذا يكون عيسى عليه السلام شاهداً على أولئك الذين اتخذوه إلهاً بأنهم كافرون.. وهكذا يأتي الأنبياءُ جميعاً.. كل نبي يكون شهيداً على أمته بالمنهج الذي بلّغه.. حتى لا يستطيع أحدٌ أن يجادلَ ويقول: إن الرسولَ قد قال هذا.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

هكذا يجعل اللّهُ سبحانه العصاةَ والكافرين يشهدون على أنفسهم بأنهم كاذبون.

هذا هو حسابُ النبيين والشهداء.. فهؤلاء لا يُحاسَبون، لأن اللّه قد كتب لهم أنْ يدخلوا الجنةَ بغير حساب، بل إن هؤلاء يشفعون لغيرهم يوم القيامة، فرسول اللّه ﷺ يقول: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، لذلك فإن كلَّ مَن ينكر شفاعة الرسل نقول له: اقرأ قول الحق ـ سبحانه وتعالى:

obeikandl.com

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

واستخدام الحق سبحانه وتعالى لكلمة (إلا) معناها أن هناك استثناء.. فإلا حرف استثناء.. وإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد كتب على نفسه أنه يستثني من خَلْقه مَنْ يشاء ليكونوا شفعاء، فإن أجدرَ الناس بهذا الاستثناء هم أنبياء الله ورسله الذين اختارهم ليبلغوا منهجه إلى البشر.

ورسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، والمُرسل إلى الناس كافةً.. تكون له الشفاعةُ الأولى، لأنه لم يُرسَل إلى قوم معينين كباقي الرسل.. وإنما أُرسل إلى البشرية جمعاء، ولذلك فإن أمته هي أكثر الأمم عدداً، وشفاعته هي أكثر الشفاعات اتساعاً.. إذن: فالشفاعة مُثْبتة لرسول الله ﷺ بنصّ القرآن الكريم.

على أن هناك صوراً أخرى أخبرنا الله ـ سبحانه بها في القرآن الكريم.. تأمل قوْلَ الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

أي: أن الذين كفروا بالله سيأتون يوم القيامة ويؤمنون.. طبعاً ما داموا قد رأوا كل شيء بعين اليقين.. ماذا يقول الذين كفروا؟

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

وهكذا تكون العداوةُ سافرةً بين الإنسان وبين شياطين الجن والإنس يوم القيامة.. ويعلم الإنسان علمَ اليقين أن أولئك الذين كانوا يُزينون له المعصية.. الذين اتخذهم أخلاّء في الدنيا كانوا أعدى أعدائه، وكانوا يريدون به السوء والهلاك، وكانوا يدفعونه دَفْعاً إلى المعصية والعذاب.. وهؤلاء يُطلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم في القرآن الكريم اسمَ القرين.

ولقد سمعنا أشياء كثيرة تُقال عن القرين.. فهناك مَن يقول: إنه خَلْقٌ مثل الإنسان، على نفس شكله وله صوته، ويلازم الإنسان طول حياته بحيث يعرف كلَّ شيء عنه، ولكنه يعيش مدةً أطول منه.

ولذلك يقولون: إن الذين يمارسون تحضير الأرواح، إنما يقومون بتحضير هذا القرين الذي يأتي ليتكلمَ بنفس صوت الميت، ويحكي كلَّ شيء عن حياته، لأنه

كان يلازمه فيها، حتى ليعتقد الحاضرُ أن روحَ الميت هي التي تتكلم.

والحقيقة أن الناس قد أخطأوا في فَهْم معنى القرين.. مع أن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ قد شرح لنا في آيات كثيرة معنى القرين، فقال تعالى:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨].

وقوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ [النساء: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٢٧].

وقول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٥].

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد بيَّن لنا بما لا يدع مجالاً للشك والتأويل أن القرين هو من شياطين الجن والإنس، وأن مهمته هو أن يبعد الناس عن منهج اللّه، وأنْ يُزينَ لهم المعصية، وأن يوسوس لهم بالسوء.

openkandil.com

من مشاهد يوم القيامة الطلب من اللّه رؤية الشيطان الذي أغوانا

هذه مهمة القرين كما وضحها لنا القرآن الكريم.. ولكل إنسان منا قرين، يحاول أن يدفعه إلى النار، وأن يُدخلَ في قلبه الشكَّ في الإيمان، ويُزين له عبادة المال والدنيا، فإذا جاء يوم القيامة تبرأ القرين، وقال: يا رب ما أطغيته ولكن قلبه كان فاسداً.

وبعض الناس يستمعون إلى هذا القرين فيقودهم إلى النار، وبعض الناس يعصمهم إيمانهم من ذلك فيفوزون بالجنة، ولذلك فإن قَوْلَ الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

معناه أن هؤلاء الكفار يريدون أن يروْا رؤية العين والمشاهدة.. القرناء الذين زينوا لهم السوء.

وحيث إننا لا نرى في الدنيا شياطين الجن لأنهم محجوبون عنّا، فكأن كل كافر يريد أن يرى شيطان الجن الذي وسوس له بالسوء، وقاده إلى الكفر، ليضعه تحت قدميه في النار حتى يذوقا العذاب معاً، وهي شهوة انتقام ودليلٌ على الندم.

فالإنسان في الآخرة، وفي هذا الموقف العصيب، يريد أن يفتكَ بكل قوته بكل مَن قاده إلى العذاب، سواء كان جنياً أو إنسياً، وهذه العداوة الرهيبة تظهر في الآخرة في أكثر من مشهد من مشاهد يوم القيامة، أشدها عنفاً وقوة.. وهو مشهد اللقاء مع القرين، لأن هذا القرين هو الذي زيَّن له المال الحرام، وأغراه بالدنيا حتى استجاب.

وألوان العذاب كثيرة في الآخرة، فجهنم فيها منازل كثيرة، واللّه سبحانه وتعالى قد صوَّر لنا الهَوْل الأكبر في مشاهد يوم القيامة.. ليس فقط في الحوار الذي سيجري وهو كثير.. ولكن أيضاً فيما سيحدث للكافرين.. ولكي نستكمل صورة الحوار قبل أن ندخل في المشاهد الأخرى.. نأتي إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ۝ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٢٧ـ ٢٩].

وبعض الناس قد يتساءلون: فاليمين عند الناس هو الصراط المستقيم . . واللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧١]، فكيف يأتونهم عن اليمين، ثم يقودونهم إلى النار؟

نقول لهم: إن اليمين هي جهة الابتداء إلى الأعمال، فالإنسان يأكل بيمينه، ويفعل معظم شؤون حياته بيمينه، فهو يبدأ كل شيء باليمين، لأنها مركز القوة، فإذا احتاج إلى جهد أكبر استعان بشماله.

ونحن هنا نتحدث عن الإنسان العادي، ولا نتحدث عن الإنسان الأشول الذي تكون قوته في ذراعه اليسرى، فتلك حالات قليلة. إذن: فاليمين هي بداية الخير للإنسان في كل شيء، وهي التي تعينه في حياته في كل أموره.

فإذا قالوا: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨].

أي: إذا كنتم تزينون لنا الباطل على أنه حقٌ. . تقولون افعل كذا وكذا. . فإذا قلنا لكم مثلاً: إن هذا حرام. حاولتم تزيينه لنا، تماماً كالذي يغريك بكأس من الخمر، فإذا قلت له إن الخمر حرام قال لك: إننا سنتناول الخمر في الجنة، ونسي أن هذا قانون. . وهذا قانون. . وأن ما سنتناوله في الجنة ليس كمثاله شيء في هذه الدنيا، لأنه صنعة اللّه خالصة للمؤمنين.

وبعض الناس يجادلون في هذه النقطة جدالاً كبيراً، ونحن لن ندخل في جدل في أن الخمر ليست لذة للشاربين، وطعمها مُرٌّ حتى أن الإنسان يتجرعها بسرعة حتى لا يذوق طعمها، ولكنها في الآخرة: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦]، كما قال اللّه سبحانه وتعالى، ومن هنا فإنها تختلف اختلافاً مبيناً.

ولكننا نقول لهؤلاء جميعاً: إنكم لم تفهموا معنى العبودية للّه ومعنى الإيمان. . معنى العبودية هو أن أطيع اللّه فيما قال. . فإذا قال: افعل فعلت، وإذا قال: لا تفعل امتنعت.

ومن هنا فإننا نتجه إلى القبلة وهي الكعبة في صلاتنا، لأن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أمرنا أن نتجه إليها. . ولو قال اللّه سبحانه: اتجهوا إلى مكان آخر لاتجهنا إليه دون مناقشة، لأن اللّه المعبودَ هو الذي يختار وليس المخلوق العابد.

ومن هنا فإن منهج السماء قد نزل إلينا باختيار اللّه، وأطعناه طاعة عبودية للّه، ونحن نُقَبّل الحجر الأسود في الحج، ونرجم الأحجار التي تمثل

إبليس.. وهذا حجر وهذا حجر.. ولكن الذي يفرق بينهما في التقبيل أو الرجم هو أمر الله بأن نفعل هذا.

ولعل تغييرَ القبلة في ليلة النصف من شعبان كان اختياراً إيمانياً للمسلمين.. والله ـ سبحانه وتعالى ـ موجود في كل مكان، وله المشرق والمغرب، ولكن حين نزل الوحي بتغيير القِبلة، وأن يتجه المسلمون إلى البيت الحرام بدلاً من اتجاههم إلى بيت المقدس.

لم يكن هذا إضافة للتكليف الإيماني، ذلك أن اتجاهي إلى الكعبة المُشرَّفة، أو اتجاهي إلى المسجد الأقصى.. كلاهما يأخذ مني نفس الجهد، ولذلك لم تكن هناك إضافة لجهد إيماني جديد بحيث يُقال: إن زيادة في التكليف قد حدثت.

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حين أمر بتغيير القبلة كان في ذلك حكمة، هي الاختبار الإيماني للناس، ولقد كان الله قادراً أن يجعل المسلمين يتجهون إلى الكعبة المشرَّفة من أول صلاة، ولكنه سبحانه أرادنا أن نفهمَ أنه لا شيءَ في هذا الكون مقدس لذاته، أو له منزلة أعلى من خصائصه الذاتية، ولكن التقديس يأتي من اختيار الله لهذا الشيء.

فإذا اختار الله مكاناً لِقِبلة الصلاة اتجهنا إليه، فإذا أمرنا أن نتجه إلى مكان آخر اتجهنا إليه دون نقاش.. لماذا؟ لأنه لا المكانَ الأول ولا المكان الثاني لهما قدسية في ذاتهما بعيدة عن الله، بل إن القدسية تأتي من اختيار الله مكاناً فلا بُدَّ أن نخضع لهذا الاختيار.. فإذا أمرنا بأن ننصرف عنه إلى مكان آخر.. فإننا نطيع الأمر، لأننا لا نخضع للمكان نفسه، لكننا نخضع لاختيار الله له.. ولذلك كان تغيير القِبلة امتحاناً إيمانياً للمسلمين.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

لماذا وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ هؤلاء الناس بالسفهاء؟ لأنهم لم يفطنوا إلى المنطق الإيماني في عبادة الله. ذلك المنطق الذي يجعل اختيارَ الله هو المفضَّل والمميز لمكان عن آخر.. وليس المكان نفسه.

لذلك فإن الجدل في الآخرة حول قولهم:

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨].

أي: تُلبسون المعصية ثوب الحلال زيفاً، فيرد عليهم أولئك الذين أضلوهم:

﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٢٩].

أي: أنه لو كان الإيمانُ في قلوبكم لاتبعتم منطق الإيمان، وما استمعتم إلينا، وكنتم تأخذون علة تنفيذ الأمر أو سبب تنفيذ الأمر أنه صادر من اللّه دون أن تبحثوا عن أسباب أخرى، فيكفي أن اللّه سبحانه وتعالى قد قال لنطيع ولا نفعل.

والذين مثلاً يحاولون الآن أن يبرروا تحريم لحم الخنزير بأنه يأتي بالدودة الشريطية، وبأنه يسبب السرطان وغيره، نقول لهم: لو أخذنا هذا المنطق ما كنا مؤمنين، ولكننا لا نأكل لحم الخنزير لأن اللّه قد حرَّمه، ولو كان لحم الخنزير يشفي كل أمراض الدنيا ما أكلناه، لأنه ما دام اللّه قد حرّمه فنحن نطيع أمر اللّه، ولا ننتظر حتى نعرفَ الحكمة من التحريم لكي نمتنع.

فالمسلمون الأوائل لم يكونوا يعرفون تلك الأمراض القاتلة التي يسببها لحم الخنزير، ولكنهم امتنعوا عنه لأن اللّه حرّمه، وكان كافياً جداً في منطق الإيمان أن يكون الامتناع بتحريم اللّه له.. دون أن نُجهدَ أنفسنا في معرفة العلة من التحريم.

ولو أخذنا كل شيء بمنطق أننا لا بُدَّ أن نعرف العلة والسبب لَكان هذا منطقاً دنيوياً، وليس عبادة للّه، ولا يدخل في منطق الإيمان، واللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يريدنا مؤمنين به إلهاً، ويكفينا أن يقول افعل لكي نفعل.

إذن: فهؤلاء الذين يطيعون منطق الإيمان المعكوس من بعض الناس، ليُحلوا ما حرَّم اللّه تحت أي ادعاء من الادعاءات، نقول لهم: إن هذا المنطق هو الذي يتخذه بعض مُدَّعي النبوة وبعض المذاهب الخارجة عن الدين، فهم يُحلون ما حرَّمه اللّه تحت ادعاءات مختلفة.

ومَن الذي يتبعهم؟ هم أولئك الذين في داخل نفوسهم مَيْلٌ للمعصية، وحبٌّ لاتباع الشهوة، لذلك لا تجد مذهباً من هذه المذاهب المنحرفة، إلا وهو قائم على تحليل ما حرَّمه اللّه، وبمنطق الإيمان المزيف.

فنجد مثلاً البهائية والقاديانية وغيرهما من المذاهب التي تريد إباحة الزنا أو زواج المتعة، أو تريد أن تُحرِّمَ ما أحله اللّه من تعدد الزوجات.. تقوم بذلك بادعاءات زائفة وتفسيرات منحرفة بالنسبة لآيات القرآن الكريم.

ولذلك فهي تحاول أن تُوهم الناس بأنها أكثر فهماً للقرآن من رسول اللّه ﷺ الذي نزل عليه هذا القرآن، أو من المسلمين الأوائل، ولا نجد مذهباً من هذه المذاهب يجاهر بالكفر أو يعلن أنه ابتعد عن الإيمان، بل كلها تدَّعي زيفاً أن خطَّها هو الإيمان الصحيح.

وهذا معنى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨]. أي: كنتم تدخلون إلينا بمنطق الإيمان والنبوة الكاذبة.

ويفضح اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ أتباع هؤلاء في قوله: ﴿بَل كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ [الصافات: ٣٠]. أي: أن الميل للمعصية والكفر كان في قلوبكم، فلما قلنا ما قلناه لم تتبعونا بمنطق الإيمان، بل اتبعتمونا لأن كلامنا صادف هوى نفوسكم، ولولا أنكم طاغون منذ البداية ما كنا استطعنا أن نستميلكم تحت أي شكل من الأشكال.

obeikandl.com

وهذا هو الطريق

بعد هذا الحديث الطويل عن النار وأصحابها، وعن جهنم ودركاتها، يجدر بنا أن ننير طريق الجنة للناس فهدف المصلحين والدعاة دائماً هو إرشاد الناس إلى طريق الخير الموصل إلى جنة رب العالمين.. لذلك كان لا بد من الحديث عن طريق الأنبياء والصالحين والشهداء لنكون في موكبهم المبارك إلى نعيم اللّه عزَّ وجلَّ.

هذا هو الطريق أيها السائرون.. فإلى الجنة دار النعيم التي عرَّفها لكم.. هذا هو طريقها واضحاً مُعَبَّداً، عليه أعلامه، وفوقه أنواره.. وها أنتم في مبتداه، فسيراً حثيثاً إلى منتهاه، حيث أبواب الجنة مُفتَّحة أيها السالكون!!.

إليكم الطريق كما رسمه رسول اللّه ﷺ في قوله: «تركتكم على المحجَّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك».

وقال ﷺ: «كلكم يدخل الجنة إلا مَنْ أَبَى، قيل: ومَنْ يأبَى يا رسول اللّه؟ فقال: مَن أطاعني دخل الجنة، ومَنْ عصاني فقد أبى».

إنه ﷺ في هذين الحديثين قد بَيَّن الطريق ورسمه واضحاً لكل ذي بصيرة، فهلُمَّ أيها الإخوان لنسير سوياً، إخواناً مُتحابين وأصدقاء متعاونين، فهيا بنا.. واسمحوا لي أن أتقدمكم رائداً لكم لأصفَ طريقكم إلى جنة ربكم، ودار إقامتكم وكرامتكم.

إن الطريق أيها الإخوة السائرون بين أربع كلمات: اثنتان سالبتان، واثنتان موجبتان. فالسالبتان: الشرك والمعاصي، والموجبتان: الإيمان والعمل الصالح. ومن هذه الكلمات الأربع يتكوَّن الطريق القاصد إلى الجنة دار الإقامة والكرامة.

وها هو ذا قد أشير إليه بكلمتي لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه، إذ الأولى تعني أنه لا معبودَ بحق إلا الغفور الودود، فليُعبد وحده بالإيمان واليقين، والطاعة له ولرسوله بالصدق والإخلاص الكاملين.

والثانية تعني أن النبي محمداً هو الرسول الخاص ببيان كيف يُعبد اللّه وحده في هذه الأكوان، وأنه لا يتأتَّى لأحد أنْ يعبد اللّه بدون إرشاده ﷺ وبيانه..

obeikandl.com

فلنسلك الطريق مسترشدين بإشارة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

فلنعتقد جازمين أن خالقنا هو الذي خلق هذه العوالم ودبَّرها بقدرته وعلمه، ومشيئته وحكمته، وفيها تجلَّتْ صفاته العُلَى وأسماؤه الحسنى، فبقدرته تعالى كانت هذه الأكوان، وبعلمه تعالى اتحدَّ وجودها وانتظم شأنها، وسارتْ إلى غاياتها في نظام مُحْكم بديع.

ولنعتقد جازمين أنه لا وجودَ لمشارك لله تعالى في خَلْق هذه العوالم ولا مُدبرَ لها معه سواه؛ إذ لو كان ذلك لَظهر في العوالم التضارب والتناقض، ولأسرعَ إليها الفناء والزوال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ولنعتقد جازمين أنه متى لم يكُنْ لله تعالى شريك في الخلق والتدبير، فإنه لا يكون له شريكٌ في الطاعة والعبادة، فلا ينبغي أنْ يعبد معه أحد أبداً سواء كان مَلَكاً مُقرَّباً، أو نبياً مرسلاً، أو دون ذلك من سائر المخلوقات. وسواء كانت العبادة صلاة أو دعاء، أو صوماً أو ذبحاً، أو زكاة أو نذراً، ولا طاعة في معصيته تعالى بتحريم ما أحلَّ، أو تحليل ما حرَّم، أو تَرْك ما أوجب، أو فعل ما حرَّم.

ولنعتقد جازمين أن حاجة الناس إلى الرسل في بيان الطريق إلى الجنة اقتضت إرسالهم، وإنزال الكتب عليهم، ومن هنا وجب تصديق كافة الرسل واتباعهم، ووجب الإيمان بالكتب والعمل بما فيها، مما لم ينسخه الله تعالى بغيره من الشرائع والأحكام، كما وجب الإيمان بالملائكة، والقدر والمعاد والحساب والجزاء. بهذه النقاط الأربع المشتملة على الإيمان الصحيح نكون قد قطعنا ربع الطريق إلى الجنة.

فلنُقم الصلاة بأنْ نتطهرَ لها طهارةً كاملة، ونُؤديها في أوقاتها في جماعة أداءً وافياً مُستوفينَ كافة الشروط والفرائض والسنن والآداب، فنوافق بها صلاة رسول الله ﷺ، حيث قال: «صَلُّوا كما رأيتموني أصلي».

ولنُؤت زكاة أموالنا أهلها من الفقراء والمساكين والغارمين والمجاهدين، ولنتحرَّ في إخراجها الجودة والكمال والإخلاص الكامل فيها لله تعالى.

ولنصُمْ رمضانَ بالإمساك عن المُفْطرات والبُعْد عن المتشابهات والمحرَّمات في: الأقوال والأفعال والخواطر والنيات.

ولْنحج بيت الله حجاً كحج رسول الله ﷺ موسوماً بالبرور، وذلك بأدائه أداءً صحيحاً خالياً من الرَّفث والفسق والجدال، محفوفاً بالخيرات، مفعماً بالصالحات.

ولنبرّ الوالدين بطاعتهما في غير معصية الله، وبالإحسان إليهما ببذل المعروف

وإسداء الجميل من القول والفعل، مع كَفّ الأذى عنهما، ولو كان ضجراً منهما.

ولنصل أرحامنا ببرّهم وزيارتهم، والسؤال عنهم، والتعرُّف إلى أحوالهم ومساعدتهم بما في القدرة، وما هو مستطاع.

ولنحسن إلى الجيران بإكرامهم المتمثل في الإحسان إليهم وكَفّ الأذى عنهم.

ولنُكرم الضيف إكرامه الواجب له بإطعامه وإيوائه.

ولنكرم المؤمن بتحقيق أخوته القائمة على أساس أداء حقوقه من: السلام عليه عند ملاقاته، وتشميته عند عطاسه، وتشييع جنازته عند مماته، وعيادته إذا مرض، وإبرار قسمه إذا أقسم.

ولنعدل في القول والفعل والحكم، إذ العدل في الكل واجب مُحَتم، وبه يستقيم أمر الدين والدنيا، ويصلح شأن العباد والبلاد.

وإلى هنا تَمَّ نصف الطريق أيها السائرون، ولم يبقَ إلا نصفه الآخر، وهو ترك الشرك والمعاصي.. فلنواصل السير في غير كلل ولا ملل، ولنترك الشرك وذلك:

١ ـ بأن لا نعتقد أن مخلوقاً من المخلوقات كائناً مَنْ كان يملك لنفسه أو لغيره ضراً أو نفعاً بدون مشيئة اللّه وإذنه، وعليه فلتكُنْ رغبتنا في اللّه فلا نرغب في أحد سواه، فلا نسأل مخلوقاً، ولا نستشفع أو نستغيث بآخر، إذ لا معطيَ ولا مغيثَ إلا اللّه. فلنقصر رغبتنا فيه، ورهبتنا وخوفنا منه.

٢ ـ بأن لا نصرفَ شيئاً من عبادة اللّه تعالى إلى أحد سواه؛ فلا نحلف بغير اللّه ولا نذبح على قبر وليٍّ من أولياء اللّه، ولا ننذر نذراً لغير اللّه، ولا ندعو غير اللّه، ولا نستغيث بسواه.

٣ ـ وبأن لا نعلقَ خيطاً أو عظماً أو حديداً، نرجو بها دَفْع العين أو كشف الضر، فإنه لا يدفع العين ولا يكشف الضر إلا اللّه.

٤ ـ وبأن لا نُصدِّق كاهناً أو عرّافاً أو مُنجِّماً فيما يخبر به ويدَّعيه من علم الغيب؛ إذ لا يعلم الغيبَ إلا اللّه.

٥ ـ وبأنْ لا نطيع حاكماً أو عالماً أو أباً أو أماً أو شيخاً في معصية اللّه، إذ طاعة غير اللّه بتحريم ما أحلَّ اللّه، أو تحليل ما حرَّم، شرك في ربوبية اللّه.

بهذه الخطوات الخمس أيها السائرون نكون قد قطعنا نصف المسافة المتبقية ولم يبق إلا نصفها الآخر وهو تَرْك المعاصي، وبعدها نصل إلى باب الجنة وندخلها إن شاء اللّه مع الداخلين.. فهيا بنا نواصل سَيرنا أيها السالكون.

فلنحفظ الدماغ فلا نفكر فيما يضر، ولا ندبر ما يسوء من فساد أو شَرٍّ.

ونحفظ السمع فلا نسمع باطلاً من سوء أو فُحْش أو كذب أو غناء أو غيبة أو نميمة أو هجر أو كفر.

ونحفظ البصر، فلا نسرحه في النظر إلى ما لا يحلّ النظر إليه من أجنبية غير محرَّمة مسلمة أو كافرة، عفيفة أو فاجرة.

ونحفظ اللسان، فلا ننطق بفحش أو بذاء، ولا سوء أو كذب أو زور، أو غيبة أو نميمة، أو سَب أو شتم، أو لعن مَن لا يستحق اللعنة.

ونحفظ البطن، فلا نُدخل فيه حراماً، طعاماً كان أو شراباً، فلا نأكل ربا ولا ميتة ولا خنزيراً، ولا نشرب مُسْكراً، ولا ندخن.

ونحفظ الفرج، فلا نطأ غير زوجة شرعية.

ونحفظ اليد، فلا نؤذي بها أحداً بضرب أو قتل، ولا نأخذ بها مالاً حراماً، ولا نلعب بها ميسراً، ولا نكتب بها زوراً أو باطلاً.

ونحفظ الرِّجْل، فلا نمشي بها إلى لهو أو باطل، ولا نسعى بها إلى فتنة أو فساد أو شر.

ونحفظ العهد والشهادة والأمانة فلا نخفر ذمة ولا ننكث عهداً ولا نخلف وعداً ولا نشهد زوراً ولا نخون أمانة.

ونحفظ المال فلا نبذره ولا نسرف فيه كما لا نهمله ولا نضيعه أو نتركه بدون إنماء أو صلاح.

ونحفظ الأهل والولد في أبدانهم وعقولهم وعقائدهم وأخلاقهم، فندفع عنهم ما يؤذيهم أو يضرهم أو يفسد أرواحهم أو عقولهم، وندرأ عنهم كل ما يُردي أو يُهلك ويُشقي.

إلى هنا. انتهى الطريق، فدُونكم الجنة دار السلام، فتهيّؤوا للدخول منتظرين رسل ربكم متى تصل إليكم حاملةً استدعاءَ ربّكم المنعم الكريم لتفدوا عليه وتحطُّوا الرِّحال بساحته.. ويومها يفرح المتقون. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

obeikandi.com